13 me Année No. 620 | Lundi - 21 - 5 - 1945

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
٨٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليا
الاعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العــــدد ٦٢٠ « القاهرة فى يوم الإثنين ٩ جمادى الآخرة سنة ١٣٦٤ — ٣١ مايو سنة ١٩٤٥ » السنة الثالثة عشرة

وزراؤنا والأدب

من القضايا التى صدقت فى الماضى والحاضر ، وفى الشرق والغرب ، أن الأدب والفن لا يزدهران وينتشران إلا فى ظلال ملك أو وزير أو أمير .

وصدق هذه القضية جاءها من أن الأدبَ العالىَ والفن الرفيع لم يكونا من مطالب العامة فى أى عهد ؛ إنما يطلبهما عشاق المجد والحمد ممن بلغوا الغاية القصوى من بسطة الحياة وسطوة الملك فتشوفت نفوسهم وامتدت عيونهم إلى أبعد من ذلك . يطلبهما الملوك وأشباههم من أولى الصدارة والإمارة لأنهما العطر الباقى فى يد ابن آدم من الجنة ؛ فمن لم يطلبهما لمتعة النفس وسعادة الروح ، طلبهما لزينة الملك وجمال الأحدوثة . فالأدب والفن بمعناهما الأعلى أرستقراطيان لا يرفعهما إلا الرفيع ، ولا يقدِّرهما إلا القادر. فإذا نزلا إلى الشعب ابتُذلا فلا ينفعانه ولا يرفعانه . إنما الأدب والفن معنيان من معانى السماء يحملك النزوع إليهما على أن تطمح ببصرك إلى الفوق ؛ ويدفعك الطمع فيهما إلى أن تطوح بنفسك إلى الأمام . ومن هنا كان الرجل إذا سمت ملكاته بالعلم أو بالملك ، ورقَّت مشاعره بالتربية أو بالمدنية ، وجد نفسه فى أفق الفن محوطاً برجاله ، مغموراً بجماله . فإذا كان صاحب الســلطان من ذوى القرائح الفنانة كان جدواه على الأدب من جهتين : جهة الإقتداء به فى الإقبال عليه ، وجهة المكافأة منه على الإحسان فيه. والناس منذ كانوا على دين الملوك وهوى القادة . قال أسامة بن معقل : « كان السفاح راغباً فى الخطب والرسائل يصطنع أهلها ويثيبهم عليها ، فحفظتُ ألف رسالة وألف خطبة طلباً للحظوة عنده فنلتها . وكان المنصور بعده معنياً بالأسمار والأخبار وأيام العرب يدنى أهلها ويجزيهم عليها ، فلم يبق شىء من الأسمار والأخبار إلا حفظته طلباً للقربة منه فظفرت بها . وكان موسى مغرماً بالشعر يستخلص أهله ، فما تركت بيتاً نادراً، ولا شعراً فاخراً، ولا نسيباً سائراً ، إلا حفظته ؛ وأعاننى على ذلك طلب الهمة فى علو الحال . ولم أر شيئاً أدعى إلى تعلم الآداب من رغبة الملوك فى أهلها وصلاتهم عليها . ثم زهد هرون فى هذه الأربعة فأنسيتها حتى كأنى لم أحفظ منها شيئاً ».

وكل أديب أو فنان أو عالم هو فى ذلك أسامة بن معقل . وما النهضات الأدبية والعلمية فى الأمم إلا وثبات للمجد الروحى فى نفوس بعض الملوك . وفى تاريخنا الأدبى نستطيع أن نؤرخ النهضات فيه بتاريخ معاوية وعبد الملك فى دمشق ، والرشيد وابنه المأمون فى بغداد ، وعبد الرحمن الناصر وابنه الحكم فى قرطبة ، والعزيز بالله وابنه الحاكم فى القاهرة . وإن فى قصور بنى بويه فى الرصافة ، وبنى حمدان فى حلب ، وبنى عبَّاد فى إشبيلية ، لمنازل للوحى تنبأ بالقريض فيها من تنبأ ، وبُعث برسالة العلم منها من أرسل . وإنك لتذكر الوزراء الأدباء من أمثال ابن العميد ، والصاحب بن عباد ،

ويعقوب بن كلس ، ولسان الدين بن الخطيب ، والقاضي الفاضل ، فتذكر مجالس بالأدب ناضرة ، ومغانيَ بالعلم عامرة ، ومجالس كانوا فيها شموساً تدور من حولها توابعها تستمد الحرارة وتمد ، وتقتبس النور وتقبس .

وكان للمجالس الأدبية والعلمية فى عصرنا الذهبي نفحات من الإلهام أيقظت رواقد العبقرية فى ألوف من الأذهان الخصبة والقرائح الموهوبة فازداد بهم الأدب والعلم ازدهاراً وابتكاراً وكثرة .

كان للرشيد مجلس للأدب بلغ لألاؤه أطراف الإمبراطورية الإسلامية فعشا على ضوئه صاغة القريض ورواته حتى ضاقت عليهم بغداد بما رحُبت ، فاضطر يحيى بن خالد إلى امتحانهم فى الشعر وترتيبهم فى الجوائز ، ليخفف من زحمة الأدباء عن عاصمة الدنيا فى ذلك الحين ، وقد عهد بذلك الامتحان إلى شاعره أبان اللاحق فقام به

وكان للمأمون مجلس للعلم يعقده فى دار الخلافة أيام الثلاثاوات من كل شهر ؛ فإذا أقبل الحكماء والفقهاء مدت الموائد وقيل لهم : « أصيبوا من الطعام والشراب ثم جددوا الوضوء . ومن كان خُفه ضيقاً فلينزعه ، ومن كانت قلنسوته ثقيلة فليضعها . فإذا فرغوا أتوا بالمجامر فتبخروا ، ثم خرجوا فدخلوا على المأمون فيدنيهم منه خير إدناء ، ويناظرهم أحسن مناظرة ، حتى تزول الشمس فتنصب الموائد ثانية فيطعمون وينصرفون .

وكان للصاحب بن عباد مجلس للشعر لا يغشاه إلا من حفظ عشرين ألف بيت من شعر العرب ، ومع ذلك الشرط القاسي كان يجتمع على سماطه كل يوم ألف من رجالات الأدب والعلم والكلام . وبنى داراً فاجتمع له من قصائد التهنئة عليها ديوان شعر ضخم . ونفق برذون لأديب من أدباء مجلسه فرثاه شعراء الحضرة بخمسين قصيدة. وقد ذكرت بذلك (مكسوبنى) حصان الدكتور محجوب ثابت ، فإنه حين نفق من الهزال لم يظفر من شعراء مصر على كثرة ما ركبوه بالمزاح والهزل إلا بقصيدة واحدة لشوقى .

وكان للمعتضد عباد دار خاصة للشعراء ينزلونها على الرحب والسعة ؛ فإذا جاء يوم الشعر وهو يوم الإثنين من كل أسبوع دخلوا عليه فلا يقابل غيرهم ولا يسمع إلا شعرهم . ولقد بلغ من عنايته بهم ورعايته لأدبهم أن جعل لهم رئيساً يرجعون إليه ، ونظاماً يرتّبون عليه ، وسجلا يُحصَون فيه .

ولو ذهبت أستقصى مجالس الأدب والعلم فى عواصم العراق والشام ومصر والأندلس لاسترخى فى يدى عنان القلم ، وتشتت فى ذهنى سياق الموضوع .

***

تواردت على خاطرى هذه المآثر العربية التاريخية وأنا أنعم لأول مرة بالحديث إلى صاحب المعالى إبراهيم دسوقى أباظه باشا وزير المواصلات ؛ وكنت قبل هذا اللقاء الأول قد عرفته بالسماع ، والسماع يسرِّى خُلقه وسمو أدبه مستفيض ، فلم يجر ذكره على لسان أديب إلا روى عن مجالسه ، ونوه بمواهبه ، وحدث عن أياديه . وكنت أعلم أنه استن لنفسه سنة وزراء بنى بويه ، فاتخذ له بطانة من صفوة الشعراء الشباب يأنس إليهم فى داره ، ويُشبل عليهم بجاهه ، ويستعين بهم فى عمله ، ويجزل لهم من فضله . وهم يعلمون أن الأدب وحده هو الذى أحظاهم عنده ، فلا يفتأون يتنافسون فى تحصيله ويتفاضلون فى تجويده . فلولا أن لهذا الوزير الشاعر طبعاً أصيلا فى الأدب استفاده من مناشىء فطرته وتقاليد أسرته ، لما انبثق فى حياته العاملة ذلك النور السماوى الذى استحال أدباً فى نفسه يتخلقه ويعمل به ، وأدباً على لسانه يقوله ويفتنّ فيه ، وأدباً على سمعه يعيه ويشجع عليه

وللقطب ابراهيم الدسوقى باشا نظراء فى الوزراء لم يجُد الدهر بأمثالهم على دولة من دول العرب فى وقت واحد منذ دالت الهاشمية فى العراق ، والأموية فى الأندلس ؛ نذكر منهم الباشوات أصحاب المعالى : لطفى السيد ، ومحمد حسين هيكل ، ومصطفى عبد الرازق ، ونجيب الهلالى ، ومكرم عبيد ، وطه السباعى ، وحفنى محمود . ولكل وزير من هؤلاء الوزراء الأدباء طفاوة من ناشئة الأدب ومنشئيه ، تتسع أو تضيق على حسب ما يبذل لها من نفسه ، ويفيض عليها من نشاطه . وهم عسيّون إذا هم استجابوا للملكة الأدب فيهم ، وواجب العربية والعروبة عليهم ، أن ينفخوا من رُوحهم ورَوْحهم فى جذوة هذه النهضة الأدبية حتى تستعر وتنتشر فتصهر بقوتها الجامد ، وتنمش بحرارتها الخامد ، وتنير بأشعتها الطريق .

احمد حسن الزيات

في إرشــــاد الأريب

إلى معرفة الأديب

للأستاذ محمد اسعاف النشاشيبي

— ٢ —

* فى ج ٥ ص ٢٣ أما إنى لا أرضى من كرمه العَدّ ، أن تُجَرّ أولياؤه على شوك الردّ

قلت : القول من رسالة لأحمد بن محمد الصخرى . وقد ضبطت (العد) بفتح العين والدال ، وإنما هى (العد) بكسر العين وبكسر الدال صفة لـكرمه . والعِد فى الأصل « الماء الجارى الدائم الذى له مادة لا تنقطع كماء العين » ، كما فى التاج . والعد الكثرة فى الشىء ، والعد القديم من الركايا . وفى الأساس : ومن المستعار : حسب عِد ، قال الحطيئة :

أتت آل شماس بن لأى وإنما أتاهم بها الأحلام والحسب العد

* فى ج ١٢ ص ٢٢٦

تصدر للتدريس كل مهوّس

قلت : رويت (مهوس) بكسر الواو وإنما هى بفتحها [1] .

فى التاج : وهو مهوس كمعظم ، وقد يطلق على من به الماليخوليا والوساوس وعلى من يشتغل بعلم الكيمياء . والعامة تستعمل الهوس بمعنى الأمل وهو من ذلك

* فى ج ٨ ص ٥٣ وهو القائل : (يعنى حسن بن إسحاق ابن أبى عبّاد اليمنى النحوى) :

لعمرك ما اللحن من شيمتى ولا أنا من خطأ ألحن
ولكننى قد عرفت الأنا م فخاطبت كلا بما يحسن

قلت : ميم الأنام مع جماعتها فى الصدر ، وإقامتها فى العجز تخل بوزنه . وفى المتقارب تجتمع العروض الصحيحة والمقبوضة والمحذوفة

(١) أما الموسوس فهو بكسر الواو . فى الأساس . وسوس الرجل بلفظ ما سمى فاعله فهو موسوس بالكسر .

* فى ج ٦ ص ١٢٣ وقال (أسعد بن المهذب) فيه (فى الثلج فى حلب) :

لما رأيت الثلج قد غطى الوهـــاد والقنن
سألت : يا أهل حلبْ هل تمطر السما اللبن ؟

قلت : اليقين أن الأصل (سألت أهل حلبٍ)

* فى ٦ ص ١٧٥ ويقول الشعر (يعنى الصاحب بن عباد) وليس بزالّ

وجاء فى الشرح : أى ليس منحرفاً عن الصواب

قلت : وليس بمبتذل والشعر الضعيف إنما يوصف بالابتذال لا بالزلل

* فى ج ٥ ص ٥٦ حدثنى المولى القاضى المفضّل جمال الدين قال : دخلت إلى الصاحب أبى بشر وهو فى مجلسه ، فجلست إلى جانبه ، فأنشدنى متمثلا :

إنك لا تشكو إلى مُصْمِتٍ فاصبر على الحمل الثقيل أومتِ

إشارة إلى أنه لم يشكه . قال أبو زياد الكلابى : ومثل من أمثال العرب : إنك لا تشكو إلى مُصْمِت . والتصميت أن تقول المرأة إذا بكى صبيها الرضيع وهى مشغولة عنه لبعض صبيانها أو لزوجها : صمّت هـذا الصبى . فيأتيه فيحضنه بيده حتى يسكت ...

قلت : ضبطت (مصمت) فى البيت وفى المثل بسكون الصاد وكسر الميم غير مشددة . وإنما هى بفتح الصاد وكسر الميم مع التشديد . وبيت الراجز يكسر بذلك الضبط . وفى اللسان والتاج : « صمّت الرجلَ شكا إليه فنزع له من شكايته ، قال : (إنك لا تشكو ، البيت) ومن أمثالهم (إنك لا تشكو إلى مصمت) أى لا تشكو إلى من يعبأ بشكواك »

وما ذكره ياقوت فى تفسيره طريف وإن لم يرد ...

* فى ج ٦ ص ١٨

أرى الناس خلان الكرام ولا أرى بخيلا له حتى الممات خليـــل

قلت : ضبطت (خلان) بكسر الخاء هنا وفى مواضع كثيرة فى الكتاب ، وهى بضمها . والبيت لإسحاق بن ابراهيم الموصلى فى مقطوعة أنشدها الرشيد ، وختمها بقوله :

وكيف أخاف الفقر أو أحرم الغنى ورأى أمير المؤمنين جميل ؟ !

فقال الرشيد : لا تخف ، إن شاء الله . ثم قال : لله در أبيات تأتينا بها ما أشد أصولها ، وأحسن فصولها ، وأقل فضولها ! وأمر له بخمسين ألف درهم . فقال له إسحاق : وصفك والله (يا أمير المؤمنين) لشعري أحسن منه ، فعلام آخذ الجائزة ؟ فضحك الرشيد ، وقال : اجعلوها لهذا القول مئة ألف درهم . قال الأصمعي: فعلمت يومئذ أن إسحاق أحذق بصيد الدراهم مني ...

وقول الرشيد (لا تخف) هو رواية الأغاني . وما جاء في (إرشاد الأريب) هو (لأكفيك)

وقد جاء في الحاشية : هذه طريقة الكوفيين إذا أكدوا الفعل إذ يكتفون باللام بدون نون التوكيد ، أما البصريون فيوجبون الجمع بين اللام والنون فيقولون : (لأكفينك)

قلت : رواية الأغاني أصح و (لا تخف) تجاوب (كيف أخاف ؟)

* في ج ٦ ص ٤٤ كان ابن الأعرابي يقول : إسحاق (والله) أحق بقول أبي تمام :

يرمي بأشباحنا إلى ملك نأخذ من ماله ومن أدبه

ممن قد قيل فيه

قلت : ترمي بالتاء ، وقبله :

لست من العيس أو أكلفها وخدا يداوي المريض من وصبه

وفي هذه القصيدة :

والحظ يعطاه غير طالبه ويحرز الدر غير مجتلبه

وهل يبالي إقضاض مضجعه من راحة المكرمات في تعبه

* في ج ٦ ص ٣٣ وقال (يعني الواثق لإسحاق الموصلي) ما هو الأفضل ؟ أدب وعلم مدحه الأوائل ، واشتهاه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعون بعدهم ، وكثر في حرم الله عز وجل ومهاجر رسوله صلى الله عليه وسلم

قلت : ما هو إلا فضلُ أدب وعلم

* في ج ٦ ص ٢٩٠ ونصّ على يوم الوصول نجعله عيداً مُشرفاً ، ونتخذه موسماً ومَعْرفاً

وجاء في الشرح : العرف والمعرف واحد المعارف وهي الوجه بما اشتمل عليه ، يقال . امرأة حسنة المعارف ، وفلان من المعارف أي من المعروفين ، ومعارف الرجل أصحابه وأهل مودته كما هو شائع

قلت : نجعله عيداً مُشَرَّفاً ، ونتخذه موسماً ومُعرَّفاً

وعرّف القوم – كما في اللسان – وقفوا بعرفة ، وهو المعرف للموقف بعرفات . وفي النهاية : وفي حديث ابن عباس : ثم محلها إلى البيت العتيق ، وذلك بعد المعرف يريد به الوقوف بعرفة ، وهو التعريف أيضاً

* في ج ٦ ص ٢٣١ فهذا الضرب من الكلام يجب أن يفتخر بمثله ويترقّقُ به ؟

وفي الحاشية : يريد الافتخار ، والترقق السخرية

قلت : لم أر الترقق بمعنى السخرية في مكان ، وربما أراد القائل بالترقق التظرف والتزين

* في ج ٦ ص ٢٠٠ فَلْيُفْرَج رَوْعُك

قلت : ضبطت (فليفرج) بلفظ ما لم يسم فاعله وبالجيم . وكلامهم في هذا المعنى « لِيُفْرِخْ روعك ، أي ليخرج عنك فزعك كما يخرج الفرخ عن البيضة » ، كما في اللسان ، وروى مثله التاج . وفرّخ الروع وأفرخ ذهب الذهب

ومن أمثالهم « أفرخ روعك » قال الميداني : أفرخت البيضة إذا انفلقت عن الفرخ فخرج منها . يضرب لمن يدعى له أن يسكن روعه

* في ج ٦ ص ١٩٥

دَبَّبْتَ الضر إلينا ومَشَّيْتَ الخَمْرَ علينا

قلت : دببت غير مضعفة وكذلك مشيت . والضر إنما هو (الضَّراء) في الصحاح : الضراء بالفتح الشجر الملتف في الوادي، وفلان يمشي الضراء إذا مشى مستخفياً فيما يواري من الشجر ، ويقال للرجل إذا ختل صاحبه هو يمشي له الضراء ويدب له الخمر والخمر إنما هو (الخَمَر) في اللسان : الخمر كل ما سترك من شجر أو بناء أو غيره ، ويقال للرجل إذا ختل صاحبه هو يدب له الضراء ويمشي له الخمر

* في ج ٦ ص ٢٩٠

سقى الله دارات مررتَ بأرضها فأدتك نحوي يا زيادُ بن عامر

من سخافات الوضاعين

ســـــورة النورين

وكتاب دبستان مذاهب

للدكتور جواد علي

في كتاب فارسي طبع عدة طبعات في الهند وإيران[١] سورة دعيت سورة النورين ، زعم مؤلف الكتاب أنها من السور القرآنية التي لم يقبل الخليفة عثمان بن عفّان درجها في القرآن الكريم[٢]. وقد نقل هذه السورة المستشرقون عن هذا الكتاب ومن أشهر هؤلاء المستشرق نولدكه في كتابه « تاريخ القرآن »[٣]

والكتاب خير مرجع لمن أراد البحث عن تاريخ الملل والنحل والمذاهب والأديان في الهند وإيران ، وبخاصة في القرن الحادي عشر للهجرة ، أي في العصر الذي عاش فيه مؤلف هذا السِّفر. على أننا لا نعرف عن مؤلف الكتاب شيئاً ؛ وكل ما نعرفه أنه عاش في مدينة « إكرا » الهندية وأنه ألف الكتاب بين سنتي ١٠٦٤ و١٠٦٧ للهجرة[١].

يستهل صاحب الكتاب كتابه بالبحث في عقائد الفرس عبدة النيران (Parsis)[٢] فيفصل فيه تفصيلا وافياً ويجيد فيه إجادة تامة . ويتناول حياة (زردشت) على الأخص بالتفصيل ويدعوه (النبي زردشت)[٣] وبعد هذا البحث ينتقل إلى آراء أهل الهند ثم أهل التيبت ، فيجيد في بحث الهند أيضاً ، ويتناول بالبحث بعض الفرق الهندية التي لا يعرف عن آرائها إلا النزر اليسير . وهو في بحثه هـــذا أشبه الناس بالبيروني أبي ريحان محمد بن أحمد (٩٧٣ — ١٠٤٨) الفيلسوف الرياضي الشهير وصاحب « تحقيق ملل الهند »[٤] من حيث الطريقة في البحث والحرية في عرض الحقائق والحياد في معالجة القضايا الدينية ومناهج البحث .

المؤلف على ما يظهر راوية لما يسمع ، محدث لما يرى ، جالس علماء الطوائف المختلفة وتكلم إلى رؤساء الشيع والمذاهب ، فنقل ما سمعه نقلا لا ندري مبلغ درجته من الصحة لجهلنا بمنزلة المؤلف ودرجته من الحق . أخذ معلوماته عن السنة من كتاب واحد هو « كتاب الملل والنحل » للعلامة الشهير أبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني[٥] ولعله استمد معلوماته عن بقية المذاهب الإسلامية من هذا الكتاب أيضاً ؛ غير أنه لم يذهب مذهبه في التقسيم ولم يتوسع توسعه في المعرفة بل اقتصر على معلومات عامة وخاصة تناسب الهند والحالة السياسية والإجتماعية التي كانت سائدة في ذلك الزمان .

(١) راجع Encyclopépie de L' Islam vol 1 p 908 Catalogue of the Persian Manscripts of the Britisch Museum 1, 141

(٢) راجع دبستان مذاهب طبعة بمبي سنة ١٢٦٢ ص ص ٢٢٨

(٣) راجع تاريخ القرآن ج ٢ ص ١٠٢ كذلك Journal Asiatique 1842 vol 1 p, 431—439

(١) دائرة المعارف الاسلامية ج ١ ص ٩٥٨ أيضاً Ethé, Catalogue of the Persian 1, 1369

(٢) عن البارسي (الفرس) راجع دائرة المعارف البريطانية Encyclopedia Britanica. The Religion of the East p, 50 f و

(٣) راجع دبستان مذاهب ص ٧٢ وما بعد .

(٤) راجع Hitti, History of the Arabs p, 377 ودائرة المعارف الاسلامية . مادة البيروني .

(٥) راجع الملل والنحل (طبعة لندن) في جزئين عن الشهرستاني راجع دائرة المعارف الاسلامية ، كذلك G, W, Thatoher, Art " Shahrastani " in Eney Clopedia of Religion and Ethics

---

* وفى ج ٧ ص ١٤٤

أثابتُ بنُ سنان ، دعوةٌ شهدت
لربها أنه ذو غـــلة أسِيفُ

قلت : ضبطت (بن) بالضم في البيتين وإنما هي بالفتح ، ولا يجوز الضم بوجه من الوجوه . و (زياد) و (ثابت) جائز في مثلهما الضم ، والمختار الفتح ، وفى شرح الكافية ج ١ ص ١٤١ : « وقد ذهب بعضهم إلى وجوبه »

وفى شرح المفصل لابن يعيش : حق الصفة أن تتبع الموصوف الصفة ... شبه سيبويه[١] حركة الدال من زيد بحركة الراء من امرئ ، وحركة النون من ابنم ، فكما أن الراء من امرئ تابعة للهمزة ، والنون من ابنم تابعة للميم ، كذلك أتبعوا الدال من (يا زيدَ بنَ عمرو) النون من ابن ، لأن الصفة والموصوف كالصلة والموصول ، وانضاف إلى ذلك كثرة الاستعمال فقوى الاتحاد

(١) ج ١ ص ٣١٣ وشاهده قول الراجز : (يا حكم بن المنذر بن الجارود) وقول الراجز : (يا عمر بن معمر لا منتظر)

واستمد معلوماته الشفهية عن أهل السنة والجماعة ممن اتصل بهم من العلماء أمثال « الملا عادل الكشـفري الذى التقى به فى مدينة لاهور عام ١٠٤٨ للهجرة ، والملا محمد معصوم الكاشفرى، والملايعقوب الترفانى وأمثالهم [١] . ويجعل المؤلف ديباجته عن أهل السنة والشيعة هذه العبارة « سمعت من ثقات أهل السنة رحمهم الله وقرأت فى كتبهم وفى كتاب الملل والنحل للشهرستانى أن الرسول عليه الســـلام قال : « لَيأتِيَنَّ على أمتى ما أتى على بنى إسرائيل . تفرق بنو إسرائيل على ثنتين وسبعين ملة ، وستفترق أمتى على ثلاث وسبعين ملة تزيد عليهم ملة كلهن فى النار إلا ملة واحدة . قالوا : « يا رسول الله من الملة الواحدة » قال : « ما أنا عليه وأصحابى » [٢] .

ويقسّم المؤلف أهل السنة والجماعة إلى أصناف ثلاثة : معتزلة وأشعرية ومجسمة . ويتفرغ لبحث المجسمة على الأخص .فيذكر بعض حججهم واستدلالاتهم مثل قوله تعالى : « الرحمن على العرش استوى » و « وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة » ومثل ما روى فى الحديث « قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن » و « خلق الله آدم على صورته » [٣] . وقد أسهب فى هـذا الباب إسهاباً يلفت النظر ، فالمعروف أن المشبهة أو المجسمة لم تكن إلا فئة قليلة بالنسبة إلى الأشعرية وهم غالبية السنة فلمَ كل هذا الإسهاب؟

وعد الزيدية أو الأموية فى عداد أهل السنة ومعلوماته عنهم لا تجاب إلى القارئ شيئاً جديداً ، ولعل بعد مسا كن الزيدية عنه حال بينه وبين الكتابة كما يجب أن يكون .

أما الطائفة الثانية من الطوائف الإسلامية فهى الشيعة، ويستهل بحثه عن الشيعة بهذه العبارة : « سمعت من علماء الشيعة بأن الشيعة هم حزب على بن أبى طالب القائلين بإمامته » [٤] . ولم يذكر من طوائف الشيعة غير الإثنى عشرية والإسماعيلية . ومرجعه عن الإثنى عشرية رواية نفر من علماء الشيعة ممن كانوا يقيمون فى مدينة لاهور . والظاهر أن الحديث معهم كان فى عام ١٠٥٣

(١) دبستان مذاهب ص ٢٢٣ ومواضع أخرى .
(٢) هنالك خلاف بين العلماء في منطوق هذا الحديث وفى صحته وعدم صحته . وقد جاء فى أغلب كتب علم الكلام . راجع الشهرستانى ج ١ ص ٤ والمقريزى ج ٢ ص ٣٤٥ وفرق الشيعة للنوبختي ص ٣ والبغدادى ص ١٤ وغيرها .
(٣) راجع دبستان مذاهب فى بحث المجسمة .
(٤) دبستان مذاهب ص ٢٢٦ .

للهجرة [١] . وهؤلاء العلماء الذين تحدث إليهم مؤلف الكتاب ونقل عنهم هم « ملا معصوم ومحمد مؤمن تونى وملا ابراهيم ، ذكر أثناء حديثه عن الإثنى عشرية بعض العلماء أمثال العلامة الشيخ المفيد [٢] والشيخ الطوسى [٣] والشريف الرضى [٤] والمحدث الكلينى صاحب « الكافى » [٥] وهوأشهر كتاب فى الحديث لدى الشيعة الإثنى عشرية ، والعلامة الحلى [٦] .

ويتكلم فى موضوع انقسام الشيعة الإثنى عشرية من حيث الفقه وأصوله إلى أصولية وهم غالبية الشيعة وجمهرتهم ، وأخبارية وهم القائلون بالأخبار وبقوة الحديث تجاه الرأى وبترك الأخذ بالرأى والاجتهاد . ويستند فى بحثه عن الأخبارية على كتاب « الفوائد المدنية للملا محمد أمين الإسترابادى أشهر علماء الإخبارية ولسان هذا المذهب ومنظمه [٧] » .

وينتقل المؤلف إلى الغلاة من الشيعة وهم العلى اللآهية الذين يؤلهون عليًّا . ومن رأى المؤلف أن رجال هذه الفرقة يضيفون إلى القرآن كل ما يجدونه من كلام الإمام على ، على أنه من كلام الله ، فما دام القرآن هو كلام الله ، وما دام الإمام على هو الله بعينه فَلِمَ لا يجمع كلامه كله فى صعيد واحد هو القرآن [٨] ؟

وينفرد المؤلف بذكر فرقة إسلامية لم تعرف فى كتاب آخر سماها « الصادقية » أو « المسيامية » أتباع مسيلمة الذى يلقبه المسلمون بلقب « مسيلمة الكذاب » ويدعى بأنه رأى هذه الفرقة

(١) نفس المصدر .
(٢) المفيد محمد بن محمد بن النعمان مات سنة ٤١٣ للهجرة راجع عنه الفهرست للطوسى . النجف سنة ١٩٣٧ . رجال العلامة الحلى (طهران سنة ١٣١٢) وبحار الأنوار .
(٣) الطوسى شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي المتوفى عام ٤٦٠ للهجرة . راجع الفهرست للطوسى (طبعة النجف ١٩٣٧) له كتابا التهذيب والاستبصار فى الحديث من الكتب المعتبرة عند الشيعة وكتب أخرى .
(٤) الرضى الشريف محمد بن الحسين نقيب العلويين ببغداد توفى سنة ٤٠٦ للهجرة . إتقان المقال ص ١٢٢ .
(٥) صاحب الكافى مات سنة ٣٢٨ هـ إتقان ص ١٣٥ .
(٦) دبستان ص ٢٣١ — راجع عن الحلى توفى سنة ٧٢٦ للهجرة (١٣٢٥ م) Brown Literary History of Persids part 4 p, 405 Donaldson, the Shi'ite Religèon London 1933 p, 296 راجع كتاب الرجال للعلامة جمال الدين بن يوسف بن مطهر الحلى . وكتبه الأخرى .
(٧) دبستان ص ٢٣١ وما بعد . (٨) دبستان ص ٢٤٦ .

فى مشهد من أعمال خراسان عام ١٠٥٣ للهجرة ، وأنه شاهد عالم هذه النّحلة « محمد قلى » ؛ وقد أخبره هذا العالم على ما يدعيه مؤلف الكتاب بأن مسيلمة الذى يلقبه المسلمون زوراً بلقب الكذاب إن هو إلا نبى مرسل وشريك محمد رسول الله فى الرسالة(١).

ولمسيلمة هذا كتاب سماوى يضاهى القرآن ويحاكيه على حد تعبير إمام هذا النحلة اسمه « الفاروق » لأنه يفرق بين الحق والباطل ، وهو « الفاروق الثانى » ؛ أما الفاروق الأول فهو « الفرقان » أو « القرآن » . وقد جاءت فى « فاروق » مسيلمة آخرُ أحكام الله ونواهيه ، لذلك فهو خاتم الكتب السماوية ، كما أن مسيلمة هو خاتم الأنبياء والمرسلين(٢).

ويزعم مؤلف الكتاب أن زعماء الصادقية يعرفون كتاب « الفاروق » ويحفظونه ، وأن رئيسهم كان يحفظ هذا الكتاب المقدس ، وأنه أخذه عن أجداده فأجداد أجداده إلى مسيلمة . وهو يفتخر بانتسابه إلى سلالة تشرفت بخدمة مسيلمة وقامت بواجب التعظيم لنبى مرسل ولكنه لم يذكر ولا آية واحدة من آيات هذا الفاروق على خلاف عادته فى ميله إلى ذكر الغريب(٣).

وتأخذ طرق « الصوفية » و « الإشراقية » و « الحكماء » حقلا طويلا من كتابه ، فهو يبحث فى فرقها حتى ينتهى الكتاب . ومن الطرق الغريبة طريقة « الواحدية » الذين يقولون بوحدة الجسد والروح . فهم فى هذا على مثال القائلين بالطبيعة الواحدة فى المسيح(٤) . ومؤسس هذه الطريقة هو « محمود » من قرية « مسجوان » إحدى قرى كيلان ، وقد ظهرت دعوته عام ٦٠٠ للهجرة(٥).

ومحمود هذا على زعم « الواحدية » هو المقصود بقوله تعالى : « عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً »(٦) وقد مزج أصحابه بين الفلسفة اليونانية وبين الصوفية الهندية الإيرانية ، وبين علم النجوم وأحكام الدين حتى تولدت من هذا المزيج الغريب « غنوسطية » لا هى مسيحية ولا

(١) دبستان ص ٢٤٦ وما بعد عن مسيلمة ، راجع الطبرى وابن الأثير وسيرة ابن هشام وابن كثير الشامى ثم Muir, the life of Muhamned

(٢) دبستان ص ٤٧ .

(٣) دبستان ص ٢٣٨ وما بعدها .

(٤) راجع J M Robertson a short history في مختلف الفصول of christianity أيضا Encyclopaed'a of Religian and Ethics 1918

(٥) دبستان ص ٢٣٩ وما بعد .

(٦) دبستان ص ٢٥٠ .

هى إسلامية ولا هى شرقية بحتة ، بل هى وسط بين هذا وذاك أكملها علماؤهم على مر السنين ، وتباينت كلما قدم العهد عليها ، أمثال « درويش اسماعيل » و « ميرزا تقى » و « شيخ لطف الله » و « شيخ شهاب »(١).

وللواحدية كتاب اسمه « الميزان » يتألف من رسائل فيها علوم الأولين والآخرين منذ يوم الخليقة إلى يوم يبعثون ، فيها المغيبات والنبوءات وكل ما يحتاج إليه الإنسان . وأهمّ ما فى هذا الكتاب هو أن دين العرب سيدوم ثمانية آلاف سنة لأن برجه « الثريا » ، ثم ينطوى ذلك الدور ويأتى بعده دور العجم حيث يدوم نفس هذا المقدار(٢).

وكانت للواحدية عصبة اتخذت لها مدينة « أصفهان » فى إيران مقراً وكانت لها جماعة وأنصار ، وقد زارها مؤلف الكتاب ووجد لها دعاة فى تلك المدينة ، ولكن الشاه عباس الصفوى ابن الشاخدابنده قضى على هذه الجماعة ونكّل بها حتى لم تبق لها بقية على ما يراه مؤلف الكتاب .

***

لم يعرف عن مؤلف الكتاب شىء ، وقد أجهد المستشرقون أنفسهم للتعرف على هذا المؤلف ولكنهم لم يصلوا إلى نتيجة حاسمة حتى الآن . وكان أول من عرّف هذا الكتاب إلى الأوربيين هو المستشرق الفرنسى « ده تاسى » (Garcin de Tassy)(٣) ، ثم ترجم إلى اللغة الإنكليزية ، ترجمه المستشرق الإنكليزى « كلادوين » (Gladwine) بعنوان « The School of Manners » ولم تكن ترجمته ترجمة صحيحة مضبوطة فأكملها « داود شى » (David Shea) ، ثم « أنطون تري » (Anton Trayer)(٤) .

وذهب المستشرقون إلى أن مؤلف الكتاب هو رجل يدعى « محسن فانى » لما جاء فى مقدمة بعض الطبعات : « يقول محسن فانى »(٥) ولعله الشيخ محسن فانى الكشميرى المتوفى عام ١٠٨١ للهجرة أو ١٠٨٢ . ولهذا الشيخ مؤلف اسمه « مصدر الآثار مثنوى » وهو شعر على طريقة المتصوفة كتبه سنة ١٠٦٧ للهجرة .

(١) دبستان ص ٢٥١ .

(٢) دبستان ص ٢٥١ .

(٣) Journal Aciatigue 1842 Tome 1 431 .

(٤) Pertsch P, 271 nr 229 Zeuker nr 832 Rieu, Catalogue of the Persian manuscripts of the Britisch museum 1, 141

(٥) نفس المصادر وتاريخ القرآن ج ٢ ص ١٠٠ وما بعد و Troyer Daveid Schea the Dabistan 1843 .

وتوجد نسخة منه فى مكتبة إدارة الهند[١].

ولعل أهم ما لفت أنظار المستشرقين إلى هـذا الكتاب هو وجود سورة سماها المؤلف « سورة النورين » نزلت فى الإمام على وذريته من بعده . زعم أن الشيعة يعتقدون بأنها من السور القرآنية التى حذفها الخليفة عثمان بن عفان[٢]. وقد نشرت فى المجلة الأسيوية (Journal Asiatique)[٣] ثم نشرت فى كتاب « تاريخ القرآن »[٤].

ولا يذكر المؤلف اسم المصدر الذى استقى منه هذه السورة ، ولا الكتاب الذى اعتمد عليه ، ولا الشخص الذى روى عنه سورة النورين . ولم أعثر حتى الآن على مصدر شيعى قديم أو حديث يعرف هذه السورة أو أشار إليها ولو إشارة بسيطة . ولو كانت هذه السورة موجودة حقاً لما تورع المؤلفون عن ذكرها والاستشهاد بها كما فعلوا فى الاستشهاد بمواضع من آى الذكر الحكيم ، وبالأحاديث المروية عن الرسول فى تأييد وجهة نظرهم إلى إمامة الإمام[٥] . أما السورة المزعومة فهى هذه :

سورة النورين

بسم الله الرحمن الرحيم . يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالنورين ، أنزلناهما يتلوان عليكم آياتى ويحذرانكم عذاب يوم عظيم . نوران بعضهما من بعض وأنا لسميع عليم . إن الذين يوفون بعهد الله ورسوله فى آيات لهم جنات نعيم . والذين كفروا من بعد ما آمنوا بنقضهم ميثاقهم وما عاهدهم الرسول عليه يقذفون فى الجحيم . ظلموا أنفسهم وعصوا لوصى الرسول أولئك يسقون من حميم . إن الله الذى نور السموات والأرض بما شاء واصطفى من الملائكة والرسل وجعل من المؤمنين . أولئك من خلقه يفعل الله ما يشاء لا إله إلا هو الرحمن الرحيم . قد مكر الذين من قبلهم برسلهم فأخذتهم بمكرهم إن أخذى شديد أليم . إن الله قد أهلك عاداً وثمود بما كسبوا وجعلهم لكم تذكرة فلا تتقون . وفرعون بما طغى على موسى وأخيه هرون أغرقته ومن تبعه أجمعين ليكون لكم آية وإن أكثركم فاسقون . إن الله يجمعهم يوم الحشر فلا يستطيعون الجواب حين يسألون . إن الجحيم مأواهم وإن الله عليم حكيم . يا أيها الرسول بلغ إنذارى فسوف يعلمون . قد خسر الذين كانوا عن آياتى وحكمى معرضون . مثل الذين يوفون بعهدك إنى جزيتهم جنات النعيم . إن الله لذو مغفرة وأجر عظيم ، وإن علياً لمن المتقين . وإنا لنوفيه حقه يوم الدين . وما نحن عن ظلمه بغافلين . وكرمناه على أهلك أجمعين . وإنه وذريته لصابرون . وإن عدوهم إمام المجرمين . قل للذين كفروا بعد ما آمنوا طلبتم زينة الحياة الدنيا واستعجلتم بها ونسيتم ما وعدكم الله ورسوله ونقضتم العهود بعد توكيدها وقد ضربنا لكم الأمثال لعلكم تهتدون . يا أيها الرسول قد أنزلنا إليك آيات بينات فيها من يتوفه مؤمناً ومن يتوله من بعدك يظهرون . فأعرض عنهم إنهم معرضون . إنا لهم محضرون فى يوم لا يغنى عنهم شيئاً ولا هم يرحمون . إن لهم فى جهنم مقاماً عنه لا يعدلون . فسبح باسم ربك وكن من الساجدين . ولقد أرسلنا موسى وهارون بما استخلف فبغوا عليهم فصبر جميل فجعلنا منهم القردة والخنازير ولعناهم إلى يوم يبعثون . فاصبر فسوف يبلون[١] . ولقد آتيناك الحكم كالذين من قبلك من المرسلين . وجعلنا لك منهم وصياً لعلهم يرجعون . ومن يتول عن أمرى فإنى مرجعه فليتمتعوا بكفرهم قليلاً فلا تسأل عن الناكثين . يا أيها الرسول قد جعلنا لك فى أعناق الذين آمنوا عهداً فخذه وكن من الشاكرين . إن علياً قانتاً بالليل ساجداً يحذر الآخرة ويرجو ثواب ربه ، قل هو يستوى الذين ظلموا وهم بعذابى يعلمون . سيجعل الأغلال فى أعناقهم وهم على أعمالهم يندمون . إنا بشرناك بذرية الصالحين . وإنهم لأمرنا لا يخلفون . فعليهم منى صلاة ورحمة أحياء وأمواتاً ويوم يبعثون . وعلى الذين يبغون عليهم من بعدك غضبى إنهم قوم سوء خاسرين . وعلى الذين سلكوا مسلكهم منى رحمة وهم فى الغرفات آمنون . والحمد لله رب العالمين آمين[٢] .

جواد على

(١) فى دبستان المذاهب فسوف يبصرون وفى نولدكه تاريخ القرآن ج ٢ ص ١٠١ فسوف يبلون .

(٢) دبستان مذاهب (طبعة بمبى) ص ٢٢٨ — ٢٢٩ و Journal Asiatipne 1842 vol I P, 431 و 1843 vol 2 P, 414 وتاريخ القرآن ج ٢ ص ١٠٠ — ١٠١ .

(١) Catalogue of the Persian manuscripts of the Library of the India offiee gol 11, 1934 - p, 1071.

(٢) دبستان مذاهب ص ٢٢٨

(٣) 1842, vol I P, 431 و 1843 vol 2 P, 414 .

(٤) تاريخ القرآن ج ٢ ص ١٠٠ وما بعد .

(٥) راجع كتب الشيعة المعتبرة أمثال الكافى لمحمد بن يعقوب الكلينى (طهران ١٢٨١) ومن لا يحضره الفقيه . وبحار الأنوار للملاباقره المجلسى (طهران ١٣٠١) فى ٢٦ مجلداً وشرح اللمعة . وكتاب الارشاد للعلامة المفيد وغيرها .

على هامش النقد :

مباحث عن التصوير الفنى في القرآن

للأستاذ ســـيد قطب

كانت خطتى التى اعتزمتها أن أدع كتاب « التصوير الفنى فى القرآن » وشأنه مع القراء والنقاد ، يصنعون كيف يشاؤون ، بعد أن فرغ بينى وبينه كل حساب !

ولكن بعض الذين تفضلوا بالكتابة عنه قد أثاروا أسئلة ومباحث حول الموضوع ذاته ، فلم تعد المسألة مسألة كتاب التصوير الفنى ولكنها مسألة القرآن . وهى بهذا الوضع تصلح لحديث متصل ، ولا يعد حديثى عنها عودة إلى كتاب بذاته . وهذا مايبيح لى أن أخالف خطتى فى هذه النقطة وحدها . وسأدع للقراء والنقاد كل ما يعن لهم خاصاً بتقدير كتابى دون اعتراض عليه ، ولن أناقشهم إلا فيما يتناول الموضوع ذاته ، وهو ملك لى كما هو ملك لهم بطبيعة الحال !

* * *

وجه إلىّ الأستاذ نجيب محفوظ سؤالاً ، ولاحظ على فصل من فصول الكتاب ملاحظة قال :

« فأما السؤال فإنك تحدثت عن التصوير والتخييل والتجسيم والتنسيق الفنى ، وكل أولئك روح الشعر ولبابه قبل أى شىء آخر . أفلم يخطر لك أن تحدد نوع كلام القرآن على ضوء بحثك هذا ؟ »

وأنا أحسبنى قد أجبت على مثل هذا السؤال حينما قلت فى صفحة ٨٣ من الكتاب وما بعدها هذه الفقرات .

«جاء فى القرآن الكريم : [وما علمناه الشعرَ ـ وماينبغى له ـ إنْ هو إلا ذكرٌ وقرآنٌ مبين] .

« وجاء فيه حكاية عن كفار العرب : «بل افتراهُ . بل هو شاعر » .

« وصدق القرآن الكريم ، فليس هذا النسق شعراً . ولكن العرب كذلك لم يكونوا مجانين يوم قالوا عن هذا النسق العالى : إنه شعر !

« لقد راع خيالهم بما فيه من تصوير بارع ، وسحر وجدانهم بما فيه من منطق ساحر ، وأخذ أسماعهم بما فيه من إيقاع جميل . وتلك خصائص الشعر الأساسية ، إذا نحن أغفلنا القافية والتفاعيل .

« على أن النسق القرآنى قد جمع بين مزايا النثر والشعر جميعاً . فقد أعفى التعبير من قيود القافية الموحدة والتفعيلات التامة ، فنال بذلك حرية التعبير الكاملة عن جميع أغراضه العامة . وأخذ فى الوقت ذاته من الشعر الموسيقى الداخلية ، والفواصل المتقاربة فى الوزن التى تغنى عن التفاعيل ؛ والتقفية المتقاربة التى تغنى عن القوافى ؛ وضم ذلك كله إلى الخصائص التى ذكرنا ، فشأى النثر والنظم جميعاً » .

هو إذن ليس شعراً وإن أخذ من الشعر خصائصه الفنية فهو نثر . ولكنه النثر الذى يرتقى فيه التناسق الفنى آفاقاً وراء آفاق على النحو الذى أوضحته فى فصل « التناسق الفنى » وقلت إن به تقويم هذا الكتاب وهى آفاق لم تبلغ فى القديم والحديث بلا ارتياب .

ثم قال :

« وأما الملاحظة فعن الفصل الذى خصصته للنماذج الإنسانية ، فقد وجدت فيما استشهدت به من آيات ما يعبر عن طبائع بشرية وسجايا نفسية لا نماذج إنسانية ، فالنموذج الإنسانى بمعناه العامى شىء أشمل من هذا ، وقد يحوى الكثير من هذه الطبائع كما قد يحوى غيرها . والمهم أنه يعرضها على نحو خاص يتفق ومزاجه الأساسى . والنماذج الإنسانية محدودة معروفة — على اختلاف تقسيم علماء النفس لها — أما الطبائع فلا حصر لها . فلعلك قصدت الطبائع لا النماذج » .

وأحسب كذلك أن اختيار كلمة « نماذج » أقرب إلى ما يفهم من طبيعة التعبير القرآنى حين يقول مثلا : « ومن الناس من يعبد الله على حَرْفٍ فإن أصابه خير اطمأن به ، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة » أو حين يقول : « ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويُشهد الله على مافى قلبه وهو ألدُّ الخِصام وإذا تولى سعى فى الأرض ليُفسد فيها ويهلك الحرث والنسل » ... فقوله : « ومن الناس » يعنى : وفريق من

الناس . أو وسنف من الناس . أو ونموذج من الناس ... على السواء .

على أن كل إنسان تغلب عليه «طبيعة إنسانية» معينة ، حتى تصبح سمة له يعرف بها وتدل عليه ، إنما يصبح « نموذجاً » إذا كان عنواناً لطائفة من هؤلاء الذين غلبت عليهم هذه الطبيعة بعينها « فالـكارة » طبيعة و « المكابر » نموذج مثل « المقامر » و « البخيل » و « العبيط » وأمثالها من الصور الإنسانية التي أبدعتها أقلام بعض الفنانين ، وعرفت في عالم الأدب باسم «النماذج» على هذا المدلول . ومنها معظم « النماذج الإنسانية » التي يرسمها التعبير القرآني في بضع كلمات أو فقرات .

***

وكتب الأستاذ عبد المنعم خلاف كلمة مطولة ضمنها ملاحظتين أساسيتين على مباحث الكتاب :

فأما أولاهما فخاصة بالتصوير في القرآن وفيها يقول :

« غير أنني أخشى أن يكون قد أفلتت لفظة أو اثنتان من قلم المؤلف في أهم فصل من فصول الكتاب خرجت بهما فكرته الأساسية التي عنونه بها في جو من المبالغة والتعميم . ذلك أن يقرر في الفصل الذي أنشئ من أجله الكتاب أن (التصوير هو الأداة « المفضلة » في أسلوب القرآن) وأن إدراكه وسيلة إلى (إدراكنا « سر الإعجاز » في تعبير القرآن) »

« فإننا لا نستطيع أن نتجاوز عن إطلاق كلمة « المفضلة » ولا عن إطلاق « سر الإعجاز » لأن الحكم بتفضيل القرآن للتصوير كأداة في التعبير يقتضي الاعتماد على « الإحصاء » وظهور نتيجته بكثرة عددية . فهل إذا أحصينا طرق التعبير في القرآن نجد ما قرره يحظى بالكثرة العددية ؟ »

وجوابي للأستاذ عبد المنعم هو « نعم » وقد كانت مهمتي هي هذا « الإحصاء » وكان حكمي قائماً على هذا « الإحصاء » وقد عبرت عن ذلك في فصل « لقد وجدت القرآن » حين قلت :

« لقد بدأت البحث ومرجعي الأول فيه هو المصحف ، لأجمع الصور الفنية في القرآن ، وأستعرضها ، وأبين طريقة التصوير فيها ، والتناسق الفني في إخراجها إذ كان همي كله موجهاً إلى الجانب الفني الخالص ، دون التعرض المباحث الدينية أو سواها من مباحث القرآن المطروقة .

« ولكن ماذا أرى ؟

« إن حقيقة جديدة تبرز لي . إن الصورة في القرآن ليست جزءاً منه يختلف عن سائره . إن التصوير هو قاعدة التعبير في هذا الكتاب الجميل . القاعدة الأساسية المتبعة في جميع الأغراض — فيما عدا غرض التشريع بطبيعة الحال — فليس البحث إذن عن صور تجمع وترتب . ولكن عن قاعدة تكشف وتبرز .

« ذلك توفيق . لم أكن أتطلع إليه حتى التقيت به »

ولقد كنت أعني ما أقول ، وأرتكن فيه إلى الدليل .

والأستاذ عبد المنعم يخشى « إدراك سر الإعجاز » لأننا نستطيع في اليوم الذي نصل فيه إلى إدراك سر الإعجاز في تعبير القرآن أن نستخدمه في صنع كلام معجز ، وحينئذ لا يكون معجزاً ما دام مفتاحه بأيدينا وفي طوق صنعتنا »

ولست أرى داعياً لهذه الخشية لأن المسافة بين إدراك سر الإعجاز في العمل الفني خاصة ، وبين صنع الكلام المعجز ذاته مسافة متطاولة . وليست هذه على كل حال بمانعة للباحثين من محاولة إدراك هذا السر قدر ما يستطيعون ، وترك ما لا يدركونه للغيب المجهول .

على أنني أحب أن أصحح شيئاً في الموضوع ، فإن قولي « أدركنا سر الإعجاز في تصوير القرآن » جاء في معرض آخر يجعل له اتجاهاً آخر . إنه جاء هكذا بعد بيان ما في تصوير القرآن من إبداع يرتفع فوق ما تستطيعه الريشة المصورة والعدسة المشخصة :

« فإذا ما ذكرنا أن الأداة التي تصور المعنى الذهني والحالة النفسية ، وتشخص النموذج الإنساني أو الحادث المروي ، إنما هي ألفاظ جامدة ، لا ألوان تصور ولا شخوص تعبر . أدركنا سر الإعجاز في تعبير القرآن »

وما من شك أن قيام الألفاظ وحدها بوظيفة أرقى من وظيفة الريشة والعدسة في مجاله الخاص نوع من الإعجاز ، وحين ندركه مطرداً إنما ندرك « سر الإعجاز » بمقدار ما يستطيع إدراكنا الإنساني وهو المعني في هذه الحال .

***

وأما الملاحظة الثانية فعن « المنطق الوجداني في القرآن » وقد أدار عليها الأستاذ عبد المنعم معظم المقال . ومما جاء عنها هذه الفقرات :

« فليس الموطن الأول لهذه العقيدة هو الوجدان – منطقة الانفعال والاستسلام أو الثورة – بل موطنها هو موطن ذلك « البرق » الذهني أو العقلي الذي ينتج « حكماً » يرسله إلى الوجدان ، فينفعل له ويتقبله و « يعقده » في طويته ويستسلم له ويسير حياته على مقتضاه .

« هذا البرق الذي ينتج « الحكم » يستمد حيثيات أحكامه من انطباعات الصور الثابتة للكون في النفس ومن الانفعالات الداخلية بهذه الصور »

ثم يقول :

« فالقول بأن منطقة الدين هي الوجدان وحده قول غير إسلامي أخذه المسلمون المحدثون عن المفكرين غير المسلمين الذين لم يعرفوا الأساس الأول للاسلام والدين عامة »

فماذا قلت أنا في كتابي مما بنى عليه الأستاذ عبد المنعم هذه الأحكام ؟

لقد قلت :

« كانت وظيفة القرآن إذن أن ينشئ هذه العقيدة الخالصة المجردة (عقيدة التوحيد) . وموطن العقيدة الخالد هو الضمير والوجدان – موطن كل عقيدة لا العقيدة الدينية وحدها – وأقرب الطرق إلى الضمير هو البداهة ، وأقرب الطرق إلى الوجدان هو الحس . وما الذهن في هذا المجال إلا منفذ واحد من منافذ كثيرة ، وليس هو على أية حال أوسع المنافذ ولا أصدقها ولا أقربها طريقاً »

إلى أن قلت :

« فالذهن الإنساني خليق بأن يدع للمجهول حصته ، وأن يحسب له حسابه . لا يدعو إلى هذا مجرد القداسة الدينية ، ولكن يدعو إليه اتساع الآفاق النفسية وتفتح منافذ المعرفة . « فالمعقول » في عالم الذهن و « المحسوس » في تجارب العلم ، ليسا هما كل « المعروف » في عالم النفس . وما الفكر الإنساني – لا الذهن وحده – إلا كوة من كوى النفس الكثيرة . ولن يغلق إنسان على نفسه هذه المنافذ ، إلا وفي نفسه ضيق ، وفي قواه انحسار ، لا يصلح بهما للحكم في هذه الشئون الكبار » .

ثم قلت :

« لقد عمد القرآن دائماً إلى لمس البداهة وإيقاظ الإحساس ، لينفذ منهما مباشرة إلى البصيرة ، ويتخطاهما إلى الوجدان . وكانت مادته هي المشاهد المحسوسة ، والحوادث المنظورة ، أو المشاهد المشخصة ، والمصائر المصورة . كما كانت مادته هي « الحقائق » البديهية الخالدة ، التي تتفتح لها البصيرة المستنيرة ، وتدركها الفطرة المستقيمة » .

فأين فيما قلت : « إن منطقة الدين هي الوجدان وحده » في الوقت الذي أقول فيه : « وما الذهن في هذا المجال إلا منفذ واحد من منافذ كثيرة » ... كل ما يفهم من مجموعة ما قلت أنني لا أريد أن أكل هذه المهمة الضخمة لهذا الذهن الإنساني المحدود « وحده » ، وفيها ما يتصل بالغيب المجهول .

ثم أعتقد أنني كنت دقيقاً في التعبير وأنا أذكر « الحقائق البديهية الخالدة » بل وأنا أذكر « المنطق الوجداني » والمنطق لا بد له من مقدمات ونتائج وليس هو مجرد « الانفعال » كما فهمه الأستاذ . وكل ما في الأمر أنها مقدمات ونتائج من نوع خاص يعتمد على الصور المحسوسة والمشاهد المنظورة كما يعتمد على الحقائق البديهية الكونية ، ولم يكن بد من تسميته كذلك وضعاً له في مقابل « المنطق الذهني » الذي اتبعه «علماء الكلام» وهو غير المنطق القرآني بلا جدال .

***

وكتب كاتب – أو كاتبة – في جريدة الأهرام « أن هذا الكتاب « محاولة » للبحث في جمال القرآن سبقتها اتجاهات في الجامعة »

وللكتابة على هذا النحو أسباب خاصة ليس من شأني الحديث عنها كما أن وصف هذا العمل بأنه « محاولة » مسألة داخلة في دائرة « التقدير » المتروكة للقراء .

إنما يعنيني هنا الحقيقة التاريخية ... إنني بدأت هذا البحث ونشرت فصولا منه بعنوان «التصوير الفني في القرآن» في المقتطف عام ١٩٣٨ ثم أخرجته كتاباً في هذا العام فأين هي البحوث الجامعية في هذا الاتجاه .

إن كان الغرض هو البحث في جمال القرآن فهذا بحث قديم قديم ؛ وإن كان الغرض هو البحث على نحو خاص غير مسبوق ، فالواقع ينطق بأن ما كتب في الأهرام لا يطابق الحقيقة . والسلام .

سيد قطب

صفحة من تاريخ الاستكشاف :

فيتوس بيرنج

VITUS BERING

للأستاذ محمود عزت عرفة

بطرس الأكبر بين حربين

شهدت أخريات القرن الخامس عشر خرستوف كولمبس يضرب في أرجاء المحيط الأطلنطي غرباً ، على أمل أن يبلغ الهند من طرفها الشرقي فيثبت صحة النظرية التي آمن بها من استدارة الأرض . وكان بسبيل أن يحقق نظريته هذه لولا أن اعترضته أمريكا بهيكلها العظيم، فبقيت نظريته معلقة — بل وقابلة للجدل! — حتى قدِّر لماجلان أن يثبتها عمليا برحلته المشهورة فيما بين عامي ١٥١٩ و ١٥٢٢ م .

ومن ثم تتابعت الرحلات في كل متجه ، وعرف الناس عن أمريكا الشيء الكثير ، حتى وافت أيام بطرس الأكبر — عاهل روسيا وسليل أسرة رومانوف(١) — فحاكت بصدره مشكلة آلى على نفسه أن يضع لها حلا ... مشكلة عاضلة يتعلق بها مستقبل بلاده ، ويتوقف عليها مجدها وعظمتها واستقرار شعبها هادئاً — مدى أجيال — في حدود امبراطوريته التي تباعدت أطرافها ...

وكان بطرس قد شنّ على السويد حرباً ضروساً انتهت بعقد معاهدة نيستاد في أغسطس من عام ١٧٢١ ؛ وبها ضم إلى بلاده دويلات من البلطيق أمَّن بها حدودها وعزز ركنها في اتجاه الغرب فراح بعد ذلك يتلفت إلى الشرق ... إلى أطراف سيبريا المطلة على محيط مجهول يتكنفه الظلام والضباب .

ورأى بثاقب فكره أن لابد من النفوذ إلى أعماق هذه المواضع قبل أن تسد السبيل عليه فيها دولة مستعمرة ، فيقف منها أمام « سويد » أخرى تقتضيه حرباً لا يعلم إلا الله نتيجتها .

... ألا ماذا في نهاية الطرف الشمالي الشرقي من آسيا ؟..

... أهي ممتدة شمالا إلى مدى غير معلوم ، ... أم ثمة انفصال تبدأ عنده أمريكا من حيث ينتهي العالم القديم ؟

سؤال تقدم به بطرس إلى الطبيعة نفسها لا إلى عدو أو صديق من البشر، ومعضلة ينبغي أن يحلها رحالة مستكشف لا قائد محارب . وللطبيعة سر لا تسلمه إلا لمن ينتصر عليها ؛ والانتصار على الطبيعة غير المحدودة ولا المتناهية ... الطبيعة ذات الأسرار الرهيبة والمفاجآت المربكة والقوى المحتشدة الكامنة التي تعصف بقوى الإنسان قبل أن يشعر بمجرد وجودها ، فضلا عن أن ينهض إلى خصومتها — الانتصار على هذه الطبيعة — وتلك صفاتها — غير الانتصار على كتيبة من جند السويد ، أو نشر شباك مكيدة حول تركيا ، أو انتهاز فرصة اضطراب داخلي في بولندا ...

وكان بطرس ممن يحسنون تخير الرجال . فليس يزكي التاريخ « فيتوس بيرنج » بأكثر من أن يسجل أن بطرس قد انتقاه لمهمة خطيرة كانت شغله الشاغل وهو يجود بآخر أنفاس من حياته ... مهمة مات بطرس — كنحوينا المعروف — وفي نفسه منها شيء !

وكان بيرنج من أبناء دنمركة . ولد في هورستنز Horsens عام ١٦٨٠ ، وتقلب في أحضان البحر منذ صباه فنشأ بحاراً بالسليقة إن صحت العبارة ..

وقد زار المحيطين الأطلسي والهادي قبل أن يلتحق — وهو في الثالثة والعشرين من عمره — بالأسطول الروسي الحديث الذي أقام دعائمه بطرس الأكبر . واشترك بيرنج في الحرب البحرية ضد السويد فأبلى البلاء الحسن ، وكان من أثر ذلك أن قرر القيصر إيفاده على رأس البعث الذي أعده لكشف مجاهل شرقي آسيا وما يكتنفه من مياه . ولم يحل دون ذلك ما كان من مرض بطرس (الذي انتهى بموته) ، ولا ما حدث من اضطراب في الأحوال الاقتصادية على آخر عهده .

(١) ولي الحكم في روسيا بين عامي ١٦٧٢ و ١٧٢٥ م

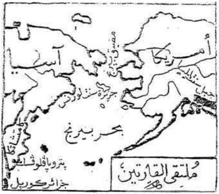
ولقد كانت تلك فى الواقع أعجب رحلة كشفية يشهدها العالم ، منذ أن قام الفينيقيون فى عهد فرعون مصر « نخاو » بطوافهم المشهور حول القارة الإفريقية[١] .

عبر مجاهل سيبريا

كانت أرض روسيا خلواً من المسالك والطرق ؛ وسيبريا التى تشغل شطرها الشرقى حتى المحيط لا تعدو أن تكون سهوبا مقفرة شديدة الإيحاش يسيطر عليها شتاء قاس رهيب لا تتبلج فى دجنته إلا غرر أيام من الصيف ضئيلات قصار .

وكان على بيرنج أن يقود بعثته مدى ألف ميل خلال هذه الأصقاع الموحشة حتى يبلغ المحيط فيبدأ أعماله الاستكشافية ؛ وكان عليه أيضاً — إذا قُدر له أن يبلغ المحيط ناجيا — مهمةُ ابتناء السفن اللازمة لهذه الرحلة المخطرة . وإن من نكد الدنيا حقا أن ينوء هذا الرحالة الجرىء بعبء ستة عشر عاماً من الجهاد المضنى ، قبل أن يتاح له تقديم جواب صحيح عن ذلك السؤال المعجز لبطرس الأكبر . ثم هو لا يفرغ من ذلك إلا ليفارق حياته مبتئساً عليلا فوق جزيرة نائية ، بعد معاناة خطوب فوادح وأهوال جسام ...

غادر بيرنج مدينة بطرسبرج فى فبراير عام ١٧٢٥ م على رأس خمسمائة من الرجال ما بين بحار وقين وكاتب ونجار وصانع شراع ، وكان معهم ثمانمائة دابة حمولة تقل ما يحتاجون إليه من الميرة والذخيرة ؛ وقد ارتفقوا بسائر ما يلزمهم عدا السفن نفسها ، إذ كانت مادتها الخشبية وقتذاك لا تزال جذوعاً ضخمة تنتدى وتنمو على الشاطئ الشمالى الشرقى من آسيا ، فى انتظار أن يأتى القوم فيقتطعوها ويصوغوا منها مطاياهم إلى البحر .



ملتقى القارتين

وكان على الركب الحاشد أن يقطع جبالاً شوامخ ، وأن يصنع لدى كل معبر نهر زوارقَ وأطوافاً يجتاز عليها من شاطىء إلى شاطىء ، ثم يخلفها وراءه تنمى من شادها . وقد قضى البعث شتاءه الأول فى أيلمسك Ilimsk الواقعة على مدى ثلاثمائة ميل تقريباً شمالى إركتسك Irkutsk . وما كاد يتبلج وجه الربيع حتى تابعوا مسيرهم خلال مستنقعات وغابات ومجار من الماء عميقة وجبال وعرة المسالك أدت بهم إلى بلوغ ياكتسك Yakutsk على نهر لينا ؛ وهناك ألجأتهم ضرورة النقل ومشقاته إلى أن ينقسموا أقساماً : فمضى فريق على رأسه سپانجبرج Spangberg فى أسطول صغير من الأطواف عبر المسالك المائية المنحدرة شرقا ، وتقدم بيرنج بطريق البر ومعه الجياد ومائتان من الرجال .. فى حين تبعهما الفريق الثالث عن كثب .

وبعد رحيل شاق مضن استغرق سبعة أسابيع وصل بيرنج إلى أوخُتسك Okhotsk حيث اقتطع رجاله ما يلزمهم من الخشب لإنشاء السفن وتشييد أرباض الشتاء ..

أما سپانجبرج فقد قطع عليه البرد طريقه ، ونفقت ركائبه بفعل الجليد وانخفاض درجة الحرارة إلى السبعين تحت الصفر .

(١) ذكر هيرودوت أن نخاو — وقد حكم بين عامى ٦٠٩ و ٥٠٣ قبل الميلاد — أراد أن يعرف علاقة البحر الأحمر بالبحر الأبيض المتوسط ، فكلف جماعة من الفينيقيين أن يسيروا فى البحر الأحمر نحو الجنوب بإزاء ساحل إفريقية الشرقى ، ثم يعودوا عن طريق أعمدة هرقل (مضيق جبل طارق) إن أمكن . فقاموا بتلك السياحة خير قيام ، ولكنها استغرقت منهم ثلاث سنوات ، لأن سفينتهم لم تكن تتسع لمقدار كبير من المؤن ، فكانوا ينزلون على الساحل كل خريف فيزرعون الأرض ثم يقيمون إلى ما بعد الشتاء حتى ينضج الزرع ، فيحصدونه ثم يقلعون — راجع «أساس الفلك والجغرافيا» للأستاذين محمد نفر الدين وعبد الفتاح الزيادى

ولم يتصل ببيرنج إلا بعد انقضاء عامين كاملين فقد خلالهما ثمانية عشر من رجاله .

وكان بيرنج قد أنجز في هذه الفترة تشييد أولى سفائنه « ذي فرشونا » وانتقل فيها مع رجاله وذخائره ومعداته إلى بولشيرتسك Bolsheretsk في شبه جزيرة كامتشاتكا . وهناك أنشأ سفينته الثانية « جبرائيل » ، فاستنفد بذلك ثلاث سنوات وخمسة شهور في عمل مضن وكفاح متواصل قبل أن يتهيأ له القيام بمهمته الرئيسية .. وهي التقصي عن خبر آسيا ومبتدأ أمريكا ..

هذه آسيا .. فأين أمريكا ؟

في العاشر من يوليو سنة ١٧٢٨ أبحر بيرنج من كامتشاتكا ميمماً صوب الشمال ؛ والتقى في إحدى الجزائر المأهولة بمن أفضى إليه من سكانها بحقائق نفعته . فقد علم أن الساحل الأسيوي بعد امتداده نحو الشمال قليلاً ينحرف إلى الغرب . وبذلك تمثلت لديه أول فكرة عن انقطاع آسيا في هذا الموضع واحتمال قيام أمريكا بإزائها . ومر بيرنج أثناء ذلك بجزيرة كبيرة أسماها سنت لورنس ، احتفاء بذكرى القديس الذي اكتشفها يوم عيده . وفي السادس والعشرين من أغسطس طاف حول رأس « إيست كيب » الواقع في أقصى الطرف الشمالي الشرقي من آسيا ؛ وتحقق لديه يومئذ أن اليابسة تنحرف نحو الشمال الغربي ، فتتبع ساحل آسيا الشمالي إلى مدى ستمائة ميل غرباً حتى بلغ خليج تشوان : Tchuan Bay وعرف أن آسيا تنتهي حقيقة في هذا الموضع ، لكنه لم يعثر بعدُ على القارة المزعومة التي قيل إنها تواجه آسيا عبر المحيط ، والتي يحتمل أن تكون أمريكا نفسها . ولاذ بيرنج بسواحل كامتشاتكا طوال أشهر الشتاء ، ثم انطلق يبحث عن أمريكا في ربيع عام ١٧٢٩ متجهاً صوب الشرق . ولما أعجزه الوقوع على طلبته كر أدراجه عائداً إلى بطرسبرج ؛ وهناك قص حديث مغامرته العجيب فأثار ضده عاصفة قوية من السخرية والتكذيب .. عاصفة أنسته بشدتها ما قاسى من عواصف سيبريا ، وهونت لديه ما لقي من عواصف المحيط ..

وكانت القيصرة كترينا التي خلفت بطرس الأكبر على عرش روسيا لا تقل عن سلفها طموحاً في الغاية ولا جرأة في العمل ؛ وقد أثر في نفسها ما لقيته مساعي بيرنج من إنكار وجمود وأعجبها من الرجل شهامته ونبل سلوكه ، فأبت أن تقطع الألسنة الحداد اللاذعة التي سلقته إلا مزيد من تكريمه وتوكيد الثقة به ؛ وعهدت إليه برئاسة بعث آخر أخطر من سابقه شأناً ..

(البقية في العدد المقبل)

محمود عزت عرفة

الأدب العصرى

فى الجنوب الغربى لشبه جزيرة العرب

للدكتور ر . ب . سارجنت

تمهيد

ليس فى أنحاء العالم العربى جزء يعرف عنه الناطقون بالضاد أقل مما يعرفون عن الزاوية التى فى الجنوب الغربى لجزيرة العرب إذا استثنينا منها عمان . وفضلاً عن ذلك ليس فى تلك المنطقة ما هو أقل معرفة لجيرانه من بلاد اليمن ، على الرغم من وقوعها فى الطريق العام للعالم ، وعلى الرغم من تاريخها الطويل فى ميدان الحضارة . يقول ابن خلدون : « وتبقى الصنائع طويلاً فى البلاد المتحضرة . فهى هناك محفوظة تتجدد دائماً ، وخصوصاً ما تمتاز به اليمن (كنسج الوشى ، والعصب ، ونسج الثياب والملابس الحريرية إلى غير ذلك مما وصل إلى درجة الإتقان) » .

وليس من الصعب أن نشرح السبب الذى من أجله كنا على جهل بهذه البلاد ؛ فقد ظلت بلاد اليمن وحضرموت قرناً ونصف قرن وهما فى اضطراب وفوضى لم يقض عليهما إلا منذ نيف وعشرة أعوام مضت . وكانت الحكومات القائمة فى ذلك العهد لا ترضى أن تأخذ على عاتقها مسئولية السماح للأجانب بالسفر فى البلاد أو بالكشف عن أسرارها . وكان يؤيد ذلك الحظر مناعة البلاد بجبالها الشاهقة التى فى « اليمن الخضراء » ؛ لهذه الأسباب لم يتسن للرحالة، أو العلماء ، أو التجار ، أن يتعمقوا فى جنوبى بلاد العرب ، منذ البعثة العلمية الدنمركية لنيبوهر ، ومنذ الأيام التى كان فيها للبريطانيين والفرنسيين مصانع فى مخا تشتغل فى تجارة البن .

على أن الأحوال قد تغيرت فى السنوات الأخيرة ، فاستطاع كل من العرب والأوربيين أن يزوروا اليمن ، ومحمية عدن ، وحضرموت . وبين كتاب العرب فى تلك البلاد عبد المحسن الذى ظهرت كتاباته قبل الحرب الماضية ، ومنذ ذلك التاريخ ظهر الريحانى ، ونزيه المؤيد العظم ، ثم أحدثهم جميعاً الدكتور حزين . وكان من ثمرة الاتصال السياسى بين اليمن من جهة ، ومصر والعراق من جهة أخرى أن اليمن استجلبت منهما خبراء ، فى العلوم الهندسية فى الغالب ، كما أن اليمن أوفدت عدداً من طلابها إلى القاهرة وإلى بغداد . كذلك التحق بخدمة إمام اليمن عدد من السوريين والأتراك ، وعند عودتهم إلى بلادهم أفضوا بتصريحات إلى رجال الصحافة الذين كانوا يتطلعون لأخبار اليمن . ورغبة فى رى ظمأ العالم المفكر عن أخبار اليمن ، استخرج من بين طيات المخطوطات الأب أنستاس مارى الكرملى كتاب « بلوغ المرام » للعرشى ونشره (طبعة مصر سنة ١٩٣٩) وهو يتصل بتاريخ اليمن إلى سنة ١٩٠٠ . على أن القسم الخلاب فى ذلك الكتاب هو الفصل الممتع الذى كتبه نيافة الأب بقلمه عن الدولة الحديثة ، معتمداً فيه على الكتابات والجرائد المعاصرة . ومع ذلك فإن القارئ يستوعبه لأول وهلة رجوع الأب أنستاس ، فى كثير من المواضع ، إلى مؤلفات الجغرافية فى القرون الوسطى ؛ فالمعلومات التى جمعها ابن حوقل ، أو المقدسى ، أو ياقوت ما زالت تقتبس سداً للنقص الذى فى المعلومات الحديثة عن اليمن ، على حين أن الهمدانى — وهو دائرة معارف عن جنوبى بلاد العرب — ذو نفع لنا لا يقدر . وقد أخرج نيافة الأب أنستاس الجزء الثامن من كتابه « الأكليل » مطبوعاً طبعاً شافياً . ولم يفتأ رجال الأدب يعلنون حزنهم على فقد الأجزاء الضائعة من ذلك السفر ، غير أنه ينبغى لنا ألا نفترض ضياعها لمن سيأتون بعدنا ، فإن الريحانى يقرر أن الإمام عنده نسخة كاملة للكتاب فى مكتبته بصنعاء ، وهى مكتبة يقال إنها إحدى كبريات المعاهد التى من هذا القبيل فى الجزيرة العربية ، ولو أن هناك كذلك مجموعات فاخرة من الكتب فى حوزة أمراء حضرموت . والحق أنه يجدر بنا أن نؤمل أملاً غير ضائع فى أن كثيراً من الكتب المأثورة ، التى لم يصل إلينا علمها إلا من كتاب « الفهرست » أو كتاب « كشف الظنون » ، ربما كشف عنها البحث فى جنوبى الجزيرة العربية .

ويشتغل بجمع هذه المخطوطات فى اليمن سيف الإسلام عبد الله المشهور بولعه بشئون التربية . وقد سمعت من يخبرنى بأن مصاحف بالخط الكوفى القديم كانت لا تزال تستعمل فى القرى النائية حتى عهد غير بعيد . وربما أحل انتشار المطبوعات مصاحف مطبوعة محل تلك المخطوطات ، فاليمن اليوم تتطور تطوراً ربما كان أعظم من أى تطور شاهدته فى خلال عدة قرون مضت .

أنواع الأدب القديم السائدة فى الجنوب الغربى لجزيرة العرب

يجنح الأدب فى الجنوب الغربى لجزيرة العرب ، بصفة عامة ، إلى نواح ملموسة ما تزال واضحة فى كتابات العصر الحاضر ، وخاصة فيما يتعلق بأغراض الأدب أو موضوعات الكتابة . وأقدم الكتب التى خلفها كتاب هذه البلاد فى الماضى هى فى الغالب دواوين شعر هو فى كثير من الأحيان شعر دينى ذو نزعة صوفية . وقد قام لويس شيخو بدراسة فيها شىء من التفصيل للشعراء النصارى القدامى فى تلك المنطقة . وأشهر المنظومات غير الدينية ، وأصلحها تمثيلاً لغيرها ، هى « القصيدة الحميرية » لنشوان بن سعيد ، وفيها يتحدث الشاعر عن افتخاره بالتراث الموروث فى العلم والعزة والسلطان . ومن ذلك قوله :

وملوك حمير ، ألف ملك ، أصبحوا
فى الترب رهن صفائح وضراح
آثارهم فى الأرض تخبرنا بهم ، والكتب من سير تقص صحاح
أنسابهم فيها تبين ، وذكرهم فى الطيب مثل العنبر الفياح
ملكوا المشارق والمغارب ، واحتووا
ما بين أنقرة ونجد الجاح
ملكت ثمود وعادا الأولى معاً منهم ملوك لم تكن بشحاح

وكان للمؤلفات التاريخية دائماً ازدهار وخاصة فى العصر الرسولى حينما كانت زبيد مركزاً لحركة أدبية منتعشة . ونكاد نكون فى غنى عن التنويه بأمثال هؤلاء المؤلفين أو هذه الكتب : عمارة الخزرجى ، والجندى ثم تواريخ صنعاء والغز . وكان من الطبيعى ، فى بلاد تقوم فيها الحياة على نظم القبائل ، أن يشغل علم الأنساب بال المؤلفين ، وقد كتب فيه السلطان الملك الأفضل ، كما أن هناك مجلداً ضخماً عن تاريخ الأولياء وطبقات الفقهاء فى بلاد اليمن ، إلى جانب سير الصحابة والمدائح النبوية .

ذلك إلى أننا نجد كثيراً من الكتب الزيدية بأقلام أتباع المذهب الخامس كما يسمى الزيدية مذهبهم ، كما نجد كمية عظيمة من الكتب الفقهية الشافعية ، وتنقسم البلاد جغرافياً إلى قسمين : اليمن الأعلى واليمن الأسفل ، ويتبع الانقسام المذهبى ذلك الانقسام الجغرافى على وجه التقريب . ويمكن أن تسمى صنعاء الحاضرة الثقافية للزيدية ، على حين أن زبيد ، وتريم ، وغيرهما من المدن الجنوبية ذات المعاهد العلميـة التى أنشأها أو أحياها الأمراء الرسوليون ، ما زالت مراكز لفقه المذهب الشافعى .

ومن أنصع الأدلة على أهمية البلاد من حيث هى مركز ثقافى فى العصور الوسطى أن السلطان الملك الأشرف دعا العالم اللغوى الشهير الفيروزابادى للاقامة هناك فى نهاية القرن الثامن الهجرى ، ثم عينه بعد ذلك قاضياً للقضاة . ومعظم الكتب العلمية التى ألفت فى العصور الوسطى ، من طراز كتاب « شمس العلوم » لنشوان الحميرى ، هى نتاج لدراسة سنية صحيحة وإن كانت خالية من الابتكار . وعلى ذكر هذا الكتاب نقول : إن إمام اليمن كان يأمل أن ينشره بجميع أجزائه ، بل إنه رغب فى الأمر المرحوم الملك فؤاد ، وقد عين وقت للنشر ، بل إنه صدر إعلان عن ذلك النشر ، ولكن وا حسرتاه ، لم يظهر الكتاب حتى الآن .

ويمكننا أن نقول بصفة عامة إنه يبدو أن اليمن فى العصور الوسطى ، على الرغم من الطابع الخاص الذى امتازت به مؤلفاتها ، لم تتمخض عن حركات أدبية مبتكرة أو ذات نباهة عظيمة . ولعل خير ما يوضح لنا اتجاه الناس نحو العلم ، من حيث هو إجلال واحتفاظ للمعلومات ، هو البيت الآتى الذى قاله شاعر مغمور وأنشدنيه أحد أصدقائى :

العلم يعلى بيوتاً لا أساس لها والجهل يدنى بيوت العز والشرف

وبما أن اليمن اليوم بلاد ما زالت إلى حد كبير فى العصور الوسطى ، تتحرك الهوينى نحو الحياة العصرية السائدة فى سائر العالم ، لم يكن هناك بد من أننا نجد ما ينشر فيها اليوم من الكتب يشبه كثيراً فى طابعه تلك الكتب التى أخرجتها فى العصور الوسطى .

الطباعة والمطبوعات فى اليمن

فى صنعاء اليوم مطبعتان ، إحداهما فى القصر الملكى المسمى « مقام الإمام » أو « المقام الشريف » . وهى هناك منذ العهد التركى ، وكانت تستعمل فى طبع الجريدة « صنعاء » التى سنتحدث عنها فيما بعد . ومع أن هذه المطبعة كانت على مايظهر تطبع بعض الكتب الصغيرة فى الحين بعد الحين ، ليس لدينا بيان عن مبلغ ما أخرجته من المطبوعات . والمطبعة الأخرى ملك لإدارة المعارف . وفى خلال العشرين سنة الماضية طبعت هاتان المطبعتان عدداً محدوداً من الكتب ، ربما لايتجاوز الثلاثين عداً ؛ ومن المرجح أن قليلاً من تلك الكتب خرج خارج البلاد نفسها . وتدل موضوعات تلك الكتب على مبلغ اشتغال الناس بالشئون الدينية ، مما تمتاز به المنطقة الجنوبية لجزيرة العرب ، وتشجعه حكومة إمام اليمن . وتشتمل الكتب المطبوعة هناك على بحوث قرآنية ، ورسائل فى مذهب الزيدية ، والفقه ، والحديث وما إلى ذلك ، وهى فى الغالب طبعات لكتب قديمة من كتب المؤلفين السابقين .

وفى العلوم المدنية شغلت إدارة المعارف نفسها بجمع مواد لإخراج كتاب فى تاريخ اليمن يمكن استخدامه فى المدارس كتاباً مدرسياً . وقبل إعلان هـذه الحرب كان تحت الطبع كتاب فى تاريخ الإمام يحيى . وقد بلغ من ارتباط الأسرة الزيدية المالكة ببلاد اليمن وما جرى لها ، سواء فى طول المدة أو وثاقة الصلة ، ما جعل هذين الكتابين على شاكلتهما ضرباً من الدعاية للأسرة الحاكمة . ومن المرجح أن ذلك سيساعد على خلق روح القومية فى البلاد . ومما يشغل بال حكام اليمن اليوم التربية والكتب المدرسية ، وهى مشكلة من المحتمل أن تزداد إلحاحاً على مرور الأيام . فأطفال المدارس الأولية مثلاً قلما يستعملون كتباً مطبوعة ، وإن كانت مدارس صنعاء تستعمل إلى حد ما كتاب « القاعدة البغدادية » لعيسى البابى الحلبى ، كما أن لدى إدارة المعارف مجموعة صغيرة من المطبوعات المدرسية . وفى « المدرسة العلمية » يكاد الطلاب لايستعملون سوى المخطوطات التى ينسخونها بأنفسهم . وطبع كتاب فى قواعد اللغة أو علم النحو ، وكذلك كتاب مؤلف فى القرن العاشر اسمه « كتاب العلماء والمتعلمين » وهو يبحث فى آداب المعلمين والطلاب ، ويبحث هذا الكتاب كذلك فى طريقة الخط ونسخ المخطوطات . وحسبنا فى أنه رؤى أن هذا الكتاب يستأهل الطبع دليلاً على نوع التربية التى ما زالت سائدة هناك ، فإن البلاد التى أخذت بنصيب أوفر فى التقدم لا ترى فى مثل هذا الكتاب ما يزيد كثيراً على قيمته التاريخية من حيث هو أثر من الآثار . وبانقطاع علماء اليمن عن الاتصال المباشر بسائر البلاد العربية ، بعوامل البيئة الجغرافية والاعتبارات المذهبية ، أصبحوا على غير شاكلة العلماء فى البلاد الأخرى .

على أن مطبعتى صنعاء أخرجتا عدة كتب فيها روح جديدة ، فهناك كتابان فى الفنون الحربية ، وكتاب فى الزراعة . وقد ظهر الكتابان الحربيان فى سنتى ١٣٤١ و ١٣٥١هـ . واسم أولهما « كتاب التربية العسكرية » ، ومؤلفه هو حسن تحسين باشا ، وهو رجل سورى كان فى وقت من الأوقات قائداً للجيش الهاشمى . وبين سنتى ١٩٣١ و ١٩٣٣ م كان هذا الضابط فى اليمن يعيد تنظيم جيش الإمام ، والقواعد التى وضعها فى هذا الكتاب تدل على درجة أعلى فى تنظيم الجيش مما هو قائم الآن ، ولكنها تؤمل مجىء وقت تتحسن فيه الإدارة الحربية .

أما كتاب « رسالة فى فن زراعة الأشجار المثمرة » فكان من تأليف أحمد واصف بك ، المستشار الزراعى فى الحقبة التى فى سنتى ١٩٣٥ و ١٩٣٦م . ويعالج الكتاب ، كما يدل عليه عنوانه ، موضوع زراعة الفواكه واستخدام الوسائل الزراعية . وكان الأتراك فى مدة احتلالهم لليمن قد قاموا بتجارب متقطعة فى إدخال محاصيل جديدة فى البلاد ، وقد احتذى البيت المالك حذوهم فى القيام بتجارب أخرى من جانبه ، وعلى الأخص فى زراعة القطن . ولا شك أننا سنرى فى المستقبل الكثير من هذه المطبوعات الفنية والعلمية .

ومن المعلوم أن كثيراً من المؤلفات القيمة بأقلام بعض اليمنيين قد ظهرت فى القاهرة حيث تقطن جالية يمنية . ومن بين هذه المطبوعات الكتب الثلاثة التى ألفها عبد الواسع ، والتى تناول فيها التاريخ والجغرافية والشئون العامة التى تشوق القارئ . ونحن

نؤمل أن يأتى اليوم الذى يستطيع فيه هؤلاء المؤلفون اليمنيون أن ينشروا مؤلفاتهم فى وطنهم . وسنرى أن معظم المؤلفات التى تنشر اليوم عن الجنوب الغربى لجزيرة العرب إنما تنشر فى مصر ، أو الهند ، أو جزائر الهند الشرقية .

عدن وطلائع الحركة الحديثة

تختلف عدن اختلافاً عظيماً عن اليمن وعزلتها الجذابة التى خلفتها فى القرون الوسطى ، بما فيها من الجو العلمى الذى يستمد من مائة سنة كانت فيها عدن على اتصال مباشر بالبلاد الأوربية ، وبمصر ، والهند ؛ وبمدارسها الثانوية للبنين والبنات ؛ ويعلم فى مدارس البنين معلمون من البلاد العربية الأخرى كسورية ، وأحياناً من الهند ؛ وبالعدد المتزايد الذى ترسله من أبنائها إلى جامعات القاهرة وبغداد . ويطالع الأهالى الجرائد المصرية الشهيرة ، بل إننى كثيراً ما رأيت كذلك روايات مصرية فى أيدى المتعلمين فى المدارس الثانوية من أهل عدن . ومما لا شك فيه أن الجالية السورية المؤلفة من مستوردى المنسوجات والتجار تستورد كذلك الجرائد السورية ، وما نعهده فى السوريين وميلهم للاشتغال بالصحافة يدعو إلى الظن بأنه فى يوم من الأيام قد يقوم أحد السوريين بنشر جريدة فى عدن . وليس هناك مفر من أن الصحافة تنتعش فى مثل ذلك الجو ، وتصدر جريدة « فتاة الجزيرة » منذ أواخر سنة ١٩٣٩ . وكان فى عدن قبل سنة ١٩١٤ ثلاث مطابع ، وكانت إحداها فى السجن وربما كانت تقتصر على طبع المطبوعات الحكومية . وليس من المعروف مدى مانشرته المطبعتان الأخريان من الكتب العربية ، ولم أستطع أن أعثر على أى مطبوع عربى صادر عنهما . على أنه قبل الحرب الحاضرة أخرجت مطبعة الهلال فى بازار بهرة — وهى تطبع بكل من اللغتين العربية والإنكليزية — مجموعة شعرية وصلت إلى يدى ، وهى ديوان لأغانى لحج على أوزان بحور الشعر القديمة والبحور المولدة ، من نظم الأمير فضل بن على . وقد أعيد طبع هذا الديوان فى مطبعة فتاة الجزيرة ؛ وقد طبعت هذه المطبعة أيضاً رسالة فى إباحة العود والرباب لنفس المؤلف المذكور . ولعل القراء يذكرون أن الموسيقى محظورة فى اليمن إذا استثنينا جوقات الموسيقى الحربية ، وهذا الكتيب ينادى بنظرة تسامحية فى شأن الموسيقى .

وقد نشر محرر فتاة الجزيرة عدة كتيبات أخرى شائقة ، على أن عدداً منها — كما هو الشأن فى مطبوعات مطبعة صنعاء — يتناول التاريخ ، والبحوث الدينية ، وسير الصالحين ، ككتاب « سلالة قحطان » ، تأليف محمد سعيد الأصبحى . وأهم ما نشر من الوجهة الصحافية هو سلسلة مقالات كتبها أعضاء النادى المعروف باسم « أقلام المخيم » ، وهى مقالات تتناول موضوعات شتى ، مثل الكشافة ، والمذياع (فإن عدن لها محطتها الإذاعية الخاصة «صوت الجزيرة» وهى كذلك تنشر صفحة عن إذاعتها) ، وحياة صيادى السمك على الساحل الجنوبى لجزيرة العرب ؛ وكل هذه المباحثات كتبت بأسلوب نقدى علمى . وقد أخبرنى محرر فتاة الجزيرة ، فى رسالة بعث إلىّ بها حديثاً ، أن هناك كثيراً من اليمنيين فى عدن يرغبون فى نشر كتب ألفوها ، وفى هذا دليل على مبلغ العناية التى ينالها الأدب فى هذه المنطقة من العالم العربى . ولا يسعنا إلا أن ننوه بعناية الجالية الهندية المسلمة فى عدن بالأدب العربى ، ولا سيما عبد الله يعقوب خان الذى هو حجة فى تاريخ ثغر عدن ، والذى نشر كتباً عن جغرافيته وأمثاله . وقد ورد ذكر الهنود القاطنين بالثغر قبل زمن أبى مخرمة الذى يشير فى كتابه « تاريخ ثغر عدن » عدة مرات إلى نشاطهم التجارى .

وخليق بالقراء الذين أخذوا من الحضارة بنصيب أوفى ، من أهل مصر وسورية اللتين مضى على قيام النهضة العربية فيهما عهد طويل — خليق بهؤلاء القراء ألا ينقدوا هذه المطبوعات نقداً حديثاً على وفق المقاييس العالية للانتاج الأدبى السائد فى بلادهم ؛ بل عليهم أن يعدوها نواة الإنتاج الأدبى الذى تقدمه بلاد الجنوب الغربى لجزيرة العرب إلى الثقافة العربية . ولنتذكر أن جمعيات المناظرة التى من طراز « نادى المخيم » كانت ذات أثر فعال فى القرن الماضى فى قيام النهضة الثقافية العربية فى سورية ؛ ونحن نرى اليوم فى عدن عوامل التقدم هذه تخلف آثارها .

(البقية فى العدد القادم)

عن مجلة الأدب والفن الانجليزية

حول مقال للأستاذ الطنطاوى

الموسيقى والأغانى الحديثة

للأديب سهيل إدريس

... وأخيراً ... عاد الأستاذ الطنطاوى إلى روض الأدب ، بعد أن انقطع عن ارتياده حيناً من الزمن طويلاً ، حسبنا معه أنه هجره إلى غير عودة ، وذهب بنا الظن « أن الحرفة قد طغت عليه » فصرفته عن الأدب ... أما وقد رجع ، فنرجو أن يواصل المسير ، وأن يتبع الركب ، فلا ريب أنه قد تخلّف عنه ، ولعله لا يفوّته بَعْدُ ! ...

أقول هذا بعد أن قرأت مقال أستاذنا الطنطاوى[1] (الذى حبّب إلينا هذا البلاء الذى نعتز به والذى يدعونه الأدب فبتنا من طلابه ...) عن الموسيقى القديمة والموسيقى الحديثة ، وعمّا تبعثه الأولى فى نفسه من سحر وفتنة ، والثانية من اشمئزاز وغثيان لها ولرجالها . ثم يقول « فلئن كان العلم عالياً لا جنس له ولا وطن ، فالفن لعمر الفن ما كان عالياً ولن يكون . حاولوا أن تطربوا الإفرنج بغنائكم ؟ إنكم لن تطربوهم ولا تطربون أنتم لغنائهم ، ولكن منا من يستشعر قوتهم وضعفنا ، فيخادع نفسه رياء وتقليداً ... » ويتابع الأستاذ مخاطباً الموسيقيين فى بلادنا « ألم تدركوا أن أذواق الناس لا تنشرح إلا للشرق الأصيل ... ما لنا وللجندول وأهل الجندول ، ما لنا ولأنغام الإفرنج التى لا طعم لها فى حلوقنا ؟ »

أما أن يدعى الأستاذ أن العلم وحده عالى ، وليس الفن كذلك فهذا بِدْعٌ من القول ، بل الحقيقة أن الفن أكثر عالمية من العلم لأنه أقرب إلى نفوس الجميع ، وأدنى إلى التذوق والفهم ، وأبلغ تأثيراً فى الإحساس ، من العلم . وللقطعة الفنية الرائعة جمال ورونق فى كل عين ، وأثر إعجاب فى كل نفس وإن فى روائع الفن الغربى ، لقطعاً قد يكون إعجاب الشرق بها متعدّياً إعجاب الغربى ، سواء كان ذلك فى الموسيقى أو الرسم أو النحت أو غير ذلك من الفنون ؛ وكذلك القول فى الفن الشرقى بالنسبة إلى الغربيين وأعفى نفسى من التمثيل لذلك . فإن هذا الأمر من البداهة بحيث لا يفتقر إلى إيماء ، بَلْهَ تشريح وتمثيل ! وإنما نعجب بفن الغربيين ، ويعجبون هم ببعض فننا لأن الفن عالى ، هذا ما لا شك فيه .

ثم كيف يزعم الأستاذ الطنطاوى أننا لا نطرب لغناء الإفرنج ، وأننا « لن » نطربهم بغنائنا ؟ هل تجد اليوم شاباً فى جميع بلدان الشرق الأوسط لا يحفظ من الأغانى الغربية هذه الأغانى : "J' attenderai toujours, ton retour" و "Kiss my again" و "Balalaika" ، ومن الذى لا يهوى سماع السمفونيات والتانجوات وغيرها ؟ ومن منا لا يطرب اليوم للموسيقى الغربية ؟ من منا لا يحب بتهوفن وباخ ؟ وهل للقطع الموسيقية التى يحفظها الشرقيون من الغرب عد أو حصر ؟ ليست القضية قضية موسيقى غربية أو شرقية ، وإنما قضية موسيقى تؤثر فى النفس وتلمس أوتار القلوب ؛ وفى الشرق والغرب من هذه الموسيقى الشىء الكثير ! أما أننا لن نطرب الإفرنج بغنائنا ، فليس ذلك عائداً إلى أن غناءنا — ولا سيما الحديث منه — ليس بالغناء الجميل ، وإنما لتقصير فى وسائل بث هذا الغناء ونشره والدعاية له فى أوروبا ، كما يفعل الغربيون بفنونهم . ولكن الأمر الذى يظلُّ موضع النظر ، هو الأغانى « المحلية » البحت ، التى لا يستسيغها عادة إلا أقوام وعشائر معينة لا يمثلون أمة بكاملها أو شعباً بكامله . والواقع يدل اليوم على أن هذه الأغانى ليس لها من الشيوع مثل ما للأغانى غير المحلية . وقليلون هم الذين يؤثرون الأولى على الأخرى . وهذا راجع — فى اعتقادنا — إلى أن الأغانى المحلية تتصف بالرتابة والترديد الباعث على الملل ، وإلى أن لها « جوها » الخاص ، وأن ليس لها نفس الحلاوة والجمال فى جو غيره . وقد يكون من الصحيح أن الأغانى المحلية ستندثر يوماً ما بداعى التطور .

[1] العدد ٦١٦ .

وظاهر من مقال الأستاذ الطنطاوى أنه يؤثر هذا اللون من الغناء على غيره . فهى إذن هواية خاصة لا تبرر له أن يعرّى ألوان الغناء الأخرى من القيمة أو من الجمال . وما دام الأستاذ قد ذكر الجندول فى معرض الإنكار أو الكراهية ، فلا بأس هنا من أن نساجله القول ؛ فليس من ريب فى أن فن الأستاذ عبد الوهاب قد سجل تحولاً جديداً فى الموسيقى العربية الحديثة يوم غنى الجندول من تلحينه ، ولا أذكر أن أحداً من رجال الفن أو الأدب أو السياسة أو حتى الفلسفة ... وقف من هذه الأغنية الموقف الذى يقفه الأستاذ الطنطاوى اليوم ! ولو أنه استشهد بغيرها من أغانى المطرب المعروف لكان الخطب أيسر ! ذلك أن هذه الأغنية أروع ما أنشد عبد الوهاب ، ولن تتماسك أمامه أية أغنية من أغانيه أو أغانى غيره فى معرض المقارنة . ذلك أنه بلغ غاية التوفيق فى تلحينها : فى اقتباس بعض مادتها من موسيقى الإفرنج وإضفاء الروح الشرقية الحالمة على ألفاظها ومعانيها . ولو أنه اجتزأ بأحد هذين العنصرين فحسب ، لعرّيت الجندول من قسط كبير من روعتها .

وقصارى ما أود قوله فى هذا المضمار — ولو أنى أعتمد فقط على تذوقى للموسيقى دون أن أكون من رجالها — أن تلقيح الأنغام العربية بالموسيقى الأوروبية يرفع من شأن موسيقانا الحديثة إلى حد بعيد . فحسبنا من تلك الأدوار القديمة التى بليت ، وكفانا ذلك الترديد الرتيب والتمديد الممل للكلمات بل للأحرف ، وقد شبعنا كل الشبع من أدوار صالح عبد الحى وعزيز عثمان وعبد الله الخولى وأضرابهم ! ...

ويظهر أن الموسيقيين المصريين قد ادركوا فى المدة الأخيرة أن التقيّد بالقديم من الألحان مؤخر النهضة الفنية ، وصارف الجيل الجديد عن القديم ، فإذا هم يعمدون إلى ألحان يستحدثونها أو يقبسونها من الأنغام الأوروبية ، فيسيرون فى هذا المضمار شوطاً بعيداً . ولا سبيل اليوم لأحد أن ينكر أن الهواة وغير الهواة من المستمعين يؤثرون ألحان عبد الوهاب على غيره من الموسيقيين القدماء . ونحن فى الحق نعتمد — فى نهضتنا الموسيقية الحاضرة — على عبد الوهاب والسنباطى والقصبجى ومن بعدهم على فريد غصن ، وفريد الأطرش ، وعبد العزيز محمود ، وغيرهم كثير .

وإن الدعوة التى يدعو إليها الأستاذ الطنطاوى لدعوة مضرة بالموسيقى والغناء الحديث إن هى اتبعت ، ونخالها لن تتبع . هذا وإن الغناء الحديث قد ارتقى — فى اعتقادنا — ارتقاء كبيراً بالنسبة للغناء القديم ، إذ أنه خلا من الترديد والتمطيط ، فليس اليوم من مغن يسلخ خمس دقائق فى أداء « آه ... » تتبعه الجوقة فينقلب الغنــاء إلى جو من النعيب ! كما أن الغناء الحديث أصبح أرشق أداء وأرق لفظاً وأحيا روحاً من الغناء القديم . وإنى أرى فيما اتهم به الأستاذ الطنطاوى المطربين المحدثين — جميعاً ! ... — شيئاً من التعسف . وإليــه على كل حال تحيتى الصادقة والسلام .

« بيروت » سهيل إدريس

نشيد الزورق

للأستاذ أحمد عبد المجيد الغزالي

« ربان هذا الزورق شاعر عاش في دنياه طويلا ، بين الماء والسماء ، ويوشك أن يعيش في دنيا الناس بعد أن رسا زورقه وركدت من تحته الأمواج » .

رسا زورقي وطويتُ الشراعا — وكفنْتُ فيه النَّدى والشُّعاعا
وعدتُ إلى شاطئ ساخراً — أردُّ الليالىَ مرّتْ سِراعا
هنا كان لى سامرٌ... أين ولّى ؟ — هُنا كان لى أملٌ... أين ضاعا
ذوى أملى فى ربيع المنى — وما خِلتُ يا «أملى» أن تراعا
فقدتُكَ يا « أملى » جدولاً — تدفَّقَ لحناً بسمعى مُشاعا
ترفُّ على جانبيْكَ المنى — فتناه يفيضُ هوًى واندفاعا
عرفتُ المنى شاعراً ملهما — وخلفتَنِى لا أجيدُ السَّماعا
أكادُ أشوِّه هذا النشيدَ — وأنكرُ فى أصبعىَّ اليراعا

رسا زورقى فوق صخرٍ رهيبِ
يطالعُ سرَّ الزمانِ العجيبِ
نعتْ فجرَهُ نسماتُ الضُّحى — ولفَّ الصباحَ شعاعُ الغروب
سرى فوق أمواجِه العاتياتِ — بهَدْىِ النبىِّ وخطْوِ المريب
تُوَلوِلُ فى جانبيْهِ الرِّياحُ — مُقذَّفةً مِنْ وراء الغُيُوب

مضى الزَّمن الحلو فوق العُبابِ — ولاذَ الغريبُ بشطٍّ غريبِ
فلا طائرِى غردٌ بالنشيدِ — ولاَ زورقى آهلٌ بالحبيب
فيا ليلةً جمعتْنا هُنا — على زورقى ، هل لنا أن تؤوبى ؟
ويا زورقى آنَ أنْ نستريحَ
فلا الخمرُ خمرى ، ولا الكوب كوبى

رَسَا زورقى وصحا الحالمُ — وثابَ إلى رُشْدِه الآثمُ
وغادرَ حانتَه مثلما — يغادِرُ مخدعَه النائم
وودع قيثاره مثلما — يودِّعُ ريشتَه الرَّاسم

وألقى بها قبل عزفِ النشيدِ — فنامَ بها الوترُ الناغم
وسلْسَل فيها نشيدَ السماء — سَنًى خاطفٌ وندًى ساجم

فيا شاعراً عافَ قيثاره — فزورقُه موحِش سَاهم
لقد كانَ يُلهمُ أوتارَها — وينطقها روحه الهائم
أيلْهُو بزورقهِ بعدها — أما شاقه عهدها الناعم ؟

رسا زورقى ، هلْ رَسَا واطمأنّا ؟
وقد هدأَ الليلُ طيراً وغصناَ
وداعبَه الموجُ فى الضفتيْنِ — وسبَّح فى الشطّ نايًا ولحناَ
أيحْيا هُنا خشباً جامداً — وقد عاش بالأمس روحاً وفنًّا !
لقدْ هادنتْهُ رياحُ العشىِّ — فهل ستظلُّ سلامًا وأمنا ؟
أقامَ هُنا كالطَّريد السليم — وضمَّ إليهِ الطريدَ المعنَّى
طريدانِ سارا النهارَ الطويل — إلى أن مضَى نورُه واستكنّا
نخافا ضلالَ الطريق البعيدِ — وناما بليلهما حينَ جنّا ...
فمنْ لكَ يا زورقى ها هنا ؟ — وقد سكن الكون حسًّا ومعنى ؟

رسا زورقى غارقًا فى الظلامِ — وقد شردَ النجمُ فوقَ الغمام
ونامتْ على الشطِّ أمواجُه — فأقفرَ من رَوحِها المستهام
أتغفُو وقد شاقَه صحوُها — أمَا سئمتْ طولَ هذا المنام ؟
أما شاقَها زورق سابحاً — فتجْرى به سبحةً للأمام ؟

لقدْ أوشكَ الليلُ أن ينجلى — وتهتفَ أطيارُه بالنيام
دعِ الليْلَ والموجَ يا زورقى — وجدِّفْ على موجةٍ من هيامى
بدا النورُ فى الأفق فاسبح له — فإنى سئمت حياةَ الظلام
ظمئْتُ إلى الفجرِ يا زورقى — أما آن لى أن أندِّى أوامى ؟

رسا زورقى عند فجرٍ سَنِىّ — فصافحه بالشُّعاعِ النَّدىّ
وأطلقَ صدّاحَهُ هاتفاً — يُرحِّبُ بالزورق العبقرىّ
فحوَّمَ مُستلهماً سرَّه — ورفرفَ فوق الجبين الوضِىّ

هُنَا شاعرٌ سابحٌ فى رؤًى — مجنّحة فى خيالٍ سرىّ
توسّدَ زورقَه مضجعاً — وأغفَى على صدْره كالصّبىّ
فأيقظَه الطيرُ من حُلْمِه — وغنَّاهُ لحنَ النشيد الشجىّ

وأجفل من نابه عاطلا … كما يجفل النور عند العشي
غدا زورق ها هنا مسنداً … يضم حطامه الشهيد الوفي

رسا زورق بعد عصف الرياح … وهبت عليه سموم الصباح
وعاد إلى عشه طائري … صريع الأماني ، ذليل الجناح
شدا في الغصون فأنكرنه … وقد كان ملء الجواء الفساح
جفا الروض شاديه العبقري … وماتت أغانيه بين الأقاحي
حنانيك يا طائري لا ترع … جراحك يا طائري من جراحي
لئن برمت بك تلك الغصون … فمش بين تلك الربا والبطاح
فلم يعد الزهر ملك الطيور … ولا وارف الظل بالمستباح
سراحك؟ حسبك أن يطلقوه … متى يطلقون الغداة سراحي؟!

رسا زورق في الصباح الحزين … فألفيت مجدافه من يميني
وغبت عن الكون في رحلة … ترامى بها الوهم فوق السنين
فمن عالم من بناء الزمان … إلى عالم من بناء الظنون
سئمت خداع التراب المهين … تخلقت فوق سماء اليقين
عوالمها أطلقتني سجيناً … فواعجبا للطليق السجين!!!
على قمة الدهر باتت قيودي … ممزقة كالهشيم الدفين
وما راعني غير تهويمة … تطل مع الصبح خلف الدجون
تلفت أبحث عن زورق … فألفيت مجدافه في يميني

رسا زورق في انبثاق الضحى … وأوما للظل أن يسرحا
وللشمس في الأفق أن تعتلي … وللطير في الروض أن يصدحا
وللغصن أن يرتوي بالندى … وللعش في الغصن أن ينزحا
وللروض أن يستفز الطيور … وللجدول الثر أن يمرحا
وللزهر أن ينفح الحالمين … وللطيف في الحلم أن يسنحا

بدا الكون يا زورق فاتناً … كما شئت ، هل آن أن تفرحا ؟
أطلت الوقوف هنا مستكيناً … وقد كان دأبك أن تجمحا
جرى الموج يركض في شطه … فيا زورق آن أن تسبحا

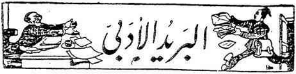
أحمد عبد المجيد الغزالي

لقاء ...

للأستاذ إدوار حنا سعد

ترفق فقد هزت كياني وخاطري … عواطف من فرح بلقياك غامر
أأنت أم الأطياف في موكب المنى … لقد كدت من سحر أكذب ناظري
تعايت دموعي في نواك على الأسى … فكيف استجابت للسرور المباكر
نعيم سماوي الجنى لم تطف به … خوافق أحلامي وطير خواطري
ولو كنت في الأحلام شاهدت صفوه … لما جن في صدري هتاف البشائر
فقد تنقص الأحلام من فرحة اللقا … إذا هي أبدتها بشتى المظاهر
طلعت كواحات الأماني ليائس … وكالأمن في واد عصوف المقادر
وكالضفة الخضراء لاحت لطائر … لهيف الظما دامي الجناح مسافر
وكالمجد ألقى للطموح عنانه … سني المجاني لؤلؤي الأزاهر
وكالبرء للعاني ... وكالنوم للذي … يؤرقه ركب الطيوف العوابر
وكالعيد للطفل الثري .. وكالسنا … لسار .. وكالطفل الجنين لعاقر
فأوشك أن يطغى سروري وأن أرى … هتوفاً بأفراحي العذارى الزواهر
لكي يعلم الحساد أية نعمة … تشوفها أمسي وضاءت بحاضري
توالى خفوق القلب بلقاك ثائراً … كطبل زنوج الغاب في عيد ساحر
تراقب عيني فيك أحور فاتناً … وتسمع أذني منك ترتيل شاعر
وألثم في مغناك شتى فواكه … وأنشق من رياك عطر مجامر
لقد حسدت بعض الجوارح بعضها … على رغم ود تالد وأواصر
قسمت حظوظاً بينها فأثرتها … شواجر أطماع بدت لشواجر

الاسكندرية — **إدوار حنا سعد**



إلى الأستاذ حبيب الزحلاوى

قرأت فى عدد الرسالة ٦١٧ كلمة موجهة إليك بتوقيع شريف القبج الدكتور فى الفلسفة ، وأنا حامل هذا الإسم وذلك اللقب أبرأ إلى الله مما جاء فى هذه الكلمة الرقيقة ، ولست آسف كثيراً على هذا المجهول الذى نزع كلمة من هنا وكلمة من هناك ووقف على منبر فى الخفاء ليعطى الإرشادات الفنية بشكل رسالة للفن السامى ، ويخاف من نشاط الغرائز غير المهذبة فى الإنسان ، ويخشى أن يستعمل الأديب فى النقد مبضعه بلا رحمة ولا هوادة .

ويتوقع أن يقف الأديب والناقد فى حلبة صراع يجلب غمز القراء ولمزهم وقهقهتهم . وكأنه يندب حظ الأدب إذا تلطخ بالمهاترات الكلامية والتراشق بالألفاظ غير المهذبة .

ونحن القراء فى هذا البلد «فلسطين» لا نزال ننعم ونتمتع بما تجود به الأقلام المصرية علينا لنغذى نفوسنا كما كانت مصر الخصيبة تملأ غرائرنا فى المجاعات العالمية التاريخية .

لقد دل هذا الكاتب المقنع من تزييف توقيعى على أن إرشاداته للأدب والأديب كاذبة ، وأنا معذور إذا لم تتولد فى روحى الحرارة الكافية للرد عليه ، لا لأنه أساء إلىَّ الناقد الأديب السيد حبيب زحلاوى ، ولا لأنه أساء إلى القراء بقصة بهلوانية ، ولا أساء إلى بلاده بعملية التزوير ، بل لأنه كأولاد الشوارع الذين يرشقون السيارات بالحجارة ولا يسع صاحب السيارة إلا أن يشتم أهل البلد الذى وقع فيه الحادث ، ولكن الذنب فى الحادث فرد مجهول .

قيل لى إن الذى مثل هذه الرواية شاب خليع ليس بالكاتب ولا بالأديب ولكنه يقول الشعر الجارح لا من قريحته بل من جمعه للقوافى المختلفة وقياسها بخيط طوله معلوم عنده ، فإذا جاءت قياساتها متناسبة وقوافيها على نغم واحد أخرجها قصيدة شتامة لرفاقه . ولقد كسدت بضاعته أو ربما أضاع الخيط الذى يقيس به فانتقل إلى صناعة النثر وبدأ باستعارة الأسماء ، وواجبى تجاه هذه المجلة العظيمة أن أعتذر للسيد حبيب زحلاوى عن هذا الواعظ المجهول ، وأعتذر لصاحب الرسالة عن ذلك الصبى الذى يرشق سيارات الناس فيسىء إلى سمعة بلده ، وأعترف أننى لا أملك القدرة لمعالجة هذه الثلمة الأخلاقية بدرس ألقيه فى الرسالة فأترك ذلك إليكم

والسلام عليكم ورحمة الله .

(طولكرم — فلسطين) **شريف القبج**

كتاب «التصوير الفنى فى القرآن»

كتاب طيب جديد فى بابه ، يشق لنفسه طريقاً إلى نفسك ، ويحل عندك محله اللائق به من إعجاب به ، وتقدير لما بذل صاحبه فى وضعه من جهد ، وما صادف من توفيق ، حتى جاء شاهداً لصاحبه بأنه كما قال الأديب عبد المنعم خلاف فى الرسالة « شاعر ناثر ناقد ، زاول الشعر والنثر والنقد ، ونجح فى ذلك كله كثيراً من النجاح » وحتى جاء شاهداً لنفسه — كما قال ذلك الأستاذ الأديب — « بأن له الموضع اللائق به من مكتبة القرآن ، ومكتبة بحوث البلاغة ، ومكتبة الفن ، ومكتبة البحث » وليس يسع القارئ لهذا الكتاب إلا أن يحمد لصاحبه عمله ، ويغبطه على نجاحه ، وذلك موقفى من الكتاب وصاحبه .

وإن تكن لنا ملاحظات بعد فهى ملاحظات هينة يسيرة ، لا تغض من قيمة الكتاب ، ولا تبخس فضل صاحبه ؛ وإنما هى ملاحظات — إن روعيت — تزيد الكتاب حسناً على حسنه ، وكمالا إلى كماله : وإليك هى :—

١ — عنى المؤلف بتحليل الآيات عناية مشكورة ؛ ولكنه لم يعن بتحريرها على وجه الصحة ، فتطرق إلى كثيرمنها الخرم ، كما تسرب إلى بعضها التصحيف ، أو التحريف ، ولو أن ذلك قليل لهان الاعتذار عنه ، وإن شاء تبيان ذلك فليضع المصحف بين يديه ثم ليراجع من كتابه صفحات ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٨ ، ١٢٠ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٣٠ ، ١٤١ ، ١٧٦ ، ١٩٨ .

ب — اتجه المؤلف فى بحثه إلى الناحية البلاغية فحسب ، ونبه فى غير موضع من كتابه إلى أن الجانب الدينى ليس موضع نظره — وهذا حسن ، ولكنه (على غير قصد منه فيما أرجح) لمس الجانب الدين لمساً جارحاً حين عرض للآيات فى قصة يوسف عليه السلام — صفحة ١١٥ — إذ وصف النبى يوسف — أولا — بأنه الواعى الحصيف ، وبأنه كان فى موقفه من زليخا يحذر مواضع الحرج جميعها ، وهذا لا شىء فيه ؛ غير أنه جعل يوسف أمام المرأة وفى هذا الموقف الأجرامى أشبه بشخص عادى (كاد يضعف) لولا أنه كان واعياً حصيفاً يخشى أن تأخذه عين الرقيب مثلا ، أو يفجأه الزوج ، وقد صدقت فراسة يوسف : إذ فجأه الزوج حين محاولته الإفلات لدى الباب . وهذا تصور غير فنى لإنسان هيأه ربه للنبوة ، وكتب له العصمة من قبل ومن بعد . وأظن الأستاذ منساقا فى هذا وراء ما يقال : من أن يوسف إنسان لم تفارقه نوازع البشرية ، فهو يميل كما يميل أى إنسان ، ويكاد يضعف كما يضعف أى إنسان . وأظنه كذلك يحسب الآية فى ظاهرها تؤيد هذا إذ قررت أن المرأة همت به ، وأن يوسف هم بها . وليسمح لى الأستاذ أن أنبهه إلى أن هذا فهم سطحى غير سديد ، درج عليه غير الدارسين لقواعد اللغة ، والمتساهلون ممن فسروا هذه الآيات .

ولو أنه لم يتابع هؤلاء فى فهمهم ، ونظر نظرة استقلالية إلى التعبير لرأى بادى الرأى — وهو القوى الإدراك لأسرار القرآن — أن هذا توجيه لا يرضيه ، وأن المقام أسمى من ذلك ، وأن نوازع البشرية فى يوسف كانت مكفوفة بالزهادة الدينية على الأقل (فضلا عن العصمة) على نحو ما ترى وتقرأ عن الأتقياء فضلا عن الأنبياء ، ولو أن يوسف كاد يضعف وأنه تحرج للحصافة والوعى والحذر لكان الموقف منه أمام الله موقف عتاب ، لا موقف تبرئة وتزكية بقوله سبحانه وتعالى (إنه كان من عبادنا المخلصين) .

وفى سياق الآيات وألفاظها المفردة ما يتسع للنظر والوصول إلى ما أبديت . ولولا أن صفحات الرسالة لا تتسع للتطويل لأوضحت : وصاحب الكتاب فى غير حاجة منى لأكثر من هذه اللفتة ؛ وحسبه أن يراعى الوضع الترتيبى لكلمة — لولا أن رأى برهان ربه — فان موقعها بين كلمتى همت وهم — وأن يتذكر ما تدل عليه كلمة لولا ، وسيجد نفسه أمام نص قاطع لوجود الميل والهم من يوسف . وكفى .

حـ — مضى ذلك الردح الطويل من تاريخ الإسلام وقضية إعجاز القرآن ناهضة تضاءلت بجانبها جهود الباحثين ، كما تحطمت على صخرتها جهود العابثين ، ولم نر ممن كتبوا وعنّوا أنفسهم واحداً يَمُنّ على الناس بما قدم لهم ، أو يغض من شأن سابقيه ، وكنت أحب للأستاذ قطب أن يدع للناس تقديره وأن يلحظ ما لحظه الأولون من أنه فوق كل ذى علم عليم ، وأن الأيام ستطلع علينا وعلى الناس بالجديد فى كل شىء فلا يغمز الأوائل بالتجهيل أو القصور ونحن لا نبنى إلا من الحصيات نجمعها من ساحاتهم الواسعة .

د — كان حريا بالأستاذ سيد قطب وهو مدرك لبلاغة القرآن ومفتون بسحره أن يشاكل بين مؤلفه وبين الكتاب العزيز فيبدأه بالتسمية ليرتفع به عن نمط الروايات وكتب التسلية التى تقرأ وتلقى لا تقرأ وتقتنى فى الموضع الكريم بين الكتب الكريمة .

هـ — وكان جميلا فى النهاية أن يضع للكتاب دليلا يرشد الناظر فيه إلى موضع كل آية ببيان صفحتها حتى يسهل على من أحب الرجوع إلى آية بعينها أن يتعرف مكانها ، دون أن يخالف النظام الشائع ويصب الكتاب صباً تحت عناوين الفصول فحسب . وبعد — فليتقبل الأستاذ ثنائى خالصاً ، وشكرى مضاعفاً ، ولا عدمنا مثل هذه الجهود الطيبة النافعة .

عبد اللطيف السبكي
المدرس بكلية الشريعة

الفن والتاريخ فى فلم سلامة

أعرف أن من حق الفن أن يدخل على التاريخ ليبعث فى وقائعه الحياة ، وليلبس حوادثه ثوباً من الأناقة والطراوة يحببها إلى النفوس والقلوب . وليس للفنان القصصى فى القصد إلى التاريخ إلا أن يجمع بين الحقيقة التاريخية تحمل أسانيد الواقع وصدق الرواية ، والحقيقة الفنية تلائم بين الحوادث بالانسجام والروعة والجمال .

ولكنى لا أعرف أن يكون من حق الفن أن يمسخ ، وأن يجرى بوقائعه على الهوى ، فيغير الزمان والمكان ، ويزوّر

الأشخاص والمشاهد ، وينكر البيئة وما تقضى به ، ويجهل الحوادث وما تؤدى إليه ، فإنه حينئذ لا يكون فناً ولا تاريخاً ، ولكنه يكون المسخ والتشويه والخلط والتضليل والشعوذة التى لا تصح فى ذوق ، ولا تليق بأى صفة من صفات الفن .

ولقد قدر لى أن أشهد فلم « سلّامة » الذى مثلته المطربة المشهورة أم كلثوم ، وأخرجه السينمائى المعروف توجو مزراحى . وقصة سلّامة فى الأدب العربى القديم من أروع القصص ، وهى بواقعيتها جميلة عنيفة تعالج كثيراً من الجوانب النفسية والخلجات العاطفية إلى جانب ما تحمل من طريف الرواية وحلاوة الغناء وروعة الجمال ، وقد استهوت بعض الأدباء المعاصرين فعرضوا وقائعها فى معرض الفن القصصى والرواية الطريفة وفيها ما فيها من روعة التحليل ، فكتبها المرحوم الأستاذ محمود مصطفى فى « مجلتى » ، وجلّاها المغفور له الأستاذ الرافعى فى « الرسالة » آية من آياته الخالدة ، ثم حبكها صديقنا الأستاذ أحمد باكثير حبكة قصصية نال بها الجائزة لإحدى المسابقات . فلما قيل إن أم كلثوم مثلتها ، قلت : طاب الأصل والمثال ، والتقى سحر القديم بروعة الحديث ، وإنها لمتعة فنية من الواجب أن أدركها وأن أفوز بها على أى حال .

وقصدت إلى مشاهدة الرواية وسماع أغانيها ، فليتنى ما قصدت ! لقد دخلت إليها ونفسى مفعمة بما أتمثل من سحر وجمال وروعة فن ، ثم خرجتُ مكروب النفس آسفاً أن يبلغ عبث التجارة بالفن إلى هذا الحد السخيف ، وأن تصبح مشاهد التاريخ ووقائعه ملكا لهؤلاء المشعوذين يسخرون منها ومن الناس على هواهم ، وعلى ما تدعو إليه بواعث الكسب التجارى ، ومع هذا يأخذون الثمن الباهظ .

أول جريمة من جرائم التزوير فى الرواية أنْ نَقَلَ « حضرة المخرج الأريب » مكانها من المدينة ومكة بالحجاز إلى الكوفة والبصرة فى العراق ، وفى هذا كذب على التاريخ ، وفيه أيضاً جهل فاضح ، لأن قصة سلامة ما كانت تطلع إلا فى أفق الحجاز ، وما كانت حياة الترف والدعة والسماع إلا ديدنهم فى ذلك الوقت ، على حين كان أهل العراق فى فتن عاصفة وحروب طاحنة وحياة شديدة قاسية ، وهذه حقيقة أحسب أن « المخرج » لا يدركها ، ولكن ماذا تكون قيمة هذا « المخرج » فى العلم بصناعته إذا ما نقل مشاهد المدنية العاصرة إلى ربوع الصحراء الخالية ، ومثل مظاهر أهل الحضر ، فى مواقع الوبر ؟ !

أما الجريمة الثانية فتتصل بشخصيات القصة ، فقد كانت سلّامة على مايحدث الرواة جارية مولدة ، شاعرة متفقهة ، تقول الشعر وتجالس العلماء ، فأبى صاحبنا سامحه الله إلا أن يمثلها جارية من جلب رخيص ، مبتذلة العاطفة والفن ، تغنى بلهجة مغربية غثة فى ألحان تافهة كأنها ألحان « زفة العروسة » ، وتعابير نازلة تعلو عليها تعابير أولاد القرية وهم فى مزارع القطن ينشدون أناشيد « مقاومة الدودة » ، فأنت تسمع فيها « الحب حلو وا لا حرّاق » و « سلام الله على الأغنام » و « غنى لى شوىْ شوىْ » وكثيراً من أمثال هذه السخافات . وأين هذا من تلك المقطوعات الشعرية العاطفية المنسجمة التى كانت تغنيها سلّامة ، والتى لو غنتها أم كلثوم لكانت لها مجداً خالداً فى الفن ، يضاف إلى ما بلغته من مجد .

وجاء « المخرج » — ولا أدرى لماذا — بالشاعر عمر بن أبى ربيعة بين أشخاص القصة ، وهو تزوير آخر على التاريخ ، إذ لم يعرف أن سلّامة التقت به ، وإن كانت هناك رواية تقول إنها التقت فى المدينة بصاحبه ابن أبى عتيق .

وفى صلة سلّامة بحبابة وبجميلة ، وفى كل شخص ، وفى كل مشهد ، تزوير على التاريخ ، وكذب على البيئة ، وخروج على روح الفن ، وشعوذة رخيصة لا تساغ إلا فى منعطفات الطرق كمشاهد « جلا جلا » وحلقات الحواة .

لماذا لا يريح الناس أنفسهم ويريحونا معهم ، بعدم ذكر الفن والتعلق بهذا الحرم المقدس الذى وضع العلماء له القواعد والأصول ، والذى يحتاج فى مزاولته إلى علم ودراية وفهم وذوق ..

أنا والله لا ألوم هذا « المخرج » فى عبثه ، لأننى أعلم تماماً أنه رجل لا يخدم الفن ولكنه يخدم جيبه ، ولا يرضى الذوق وإنما يرضى خزائنه ، فهو يقيس النجاح بمقدار الدخل واستغفال العامة وأشباههم ، ولكن كيف تجيزله رقابة الروايات هذا العبث وهذا التلفيق يفسد به الفن ويكذب به على التاريخ ويجنى به على الذوق ويضحك به على الشعب المسكين ؟!

ثم ماذا ؟

قال صاحبى : إنها لا شك مؤامرة على أم كلثوم ، قلت : ومن الأسف أنها أفلحت ..

محمد فهمى عبد اللطيف



أقصوصة من لاتفيا القديمة

الرســالة

للكونتيسة هرميانانر موهلن

ترجمة الأستاذ فيصل عبد الله المحامي

لشد ما راعني من مارتا حين لقيتها أول مرة دمامة وجهها الذي خلعت عليه أربعون عاما شر ما كان لديها .

لقد لاح وجهها آنذاك كما لو أن مثالا مجنونا نحته بأزميل مثلم الحد . وكانت تنوء في دنياها بأنفها الغليظ وجيدها المترهل ، ووجهها المعروق الذي برزت فيه عظام خديها وبفمها الواسع العريض … على أن عينيها كانتا على نحو آخر . فلم يكن ثمة غلو في القول بأنهما على شيء من الحسن — لولا — ما تعبران عنه وتنطقان به من جوع ونهم

وبرغم ذلك كان من العجيب أن لم تتزوج مارتا ، فإن فتاة من الفلاحين يتيمة من الصغر تملك حقلا ممرعا وثماني بقرات سمان وزوجي خيل من الأصائل ، وكن دجاج واسع يندر أن تبقى بكراً في ريف لاتفيا القديمة ، حيث لا يكون الزواج فيها عقداً بين فتى وفتاة وإنما يكون بين حقل وحقل؛ ولكن مارتا لم تتزوج ، ولا يبدو أنها معنية بأن تتزوج . على أن عجائز القرية كان لهن — بالطبع — ما يلغطن به . فلقد كن يهمسن بحديث حب كان قبل عشرين عاما عن فتى وسيم الطلعة من الروس جاء هذا البلد كغيره يسعى لرزقه من جني البطاطس .

ولقد روت لي عجوز درداء منهن ذات يوم حديث مارتا والروسي ذاك ، فقالت وقد دلت لهجتها عن حقد تخفيه لمارتا … (… لقد شغفها حباً ، ثم كان بعد ذلك أن أعلنا خطبتهما . وكان مقدراً أن تزف إليه في عيد القديس ميخائيل لولا أن أصر (بوريس) على أن يرحل إلى أمريكا أولا ؛ فلقد كان يقول إن له أقرباء سراة هناك لا يضنون عليه بالمال إن سمعوا رغبته في زواج صالح ، وهذا كما كان يقول سيمينه هو ومارتا على أن يبتاعا الحقول الثلاثة التي تحيط بحقلها والطاحونة التي شاخ راعيها وشح رزقه .

وبرغم أن مارتا لم تكن لتأبه بأن تمتلك الحقول أو الطاحونة فإن (بوريس) قد أصر على دعواه تلك ولج فيها فلم تستطع مارتا بالطبع لرغبته رفضاً …)

ثم سعلت العجوز وبصقت على الأرض بذوراً كانت تمضغها واسترسلت في حديثها وقد سرها أن تجد من لم يسمع بعد بما ترويه ويسعدها أن ترويه .

ثم قال لها بوريس : إنه ليستحي أن يفد على أقربائه معدما حقير الهيئة رث الثياب ، فكان أن باعت مارتان حقلين مما تملك وخمس بقرات وسواراً ذهبياً وحليا أخرى مما كانت لأمها وقدمت ثمن ذلك كله لبوريس الذي راح بعد ذلك ينفق منه على أقرانه في الحان وهو يحدثهم ساخراً هازئا بحديث مارتا الدميمة الخلق الدنيئة الخلق التي صدقته في كل ما ادعاه ..

ثم لبث بعد جني البطاطس حيناً على نهجه ذاك حتى أقبل الشتاء فعاش كالسادة على ما تدره الأرض . ولما أقبل الربيع ذهب … ولم يعد

ومنذ ذلك الحين قل أن تتحدث مارتا إلى أحد … فلم يعد لها في دنياها من شيء غير العمل والأمل ، تعمل في حقلها وترعى ما لديها وتنتظر بوريس أن يعود … وترتقب ذلك اليوم الذي فيه سيعود

ولقد يكون محتملا أن تحس مارتا بغتة رغبة في أن تتحدث إلى أحد ، وقد يكون محتملا أيضاً أنها قد أدركت أن من السهل أن تروي قصتها لغريب من أهل قريتها فيصدق كل ما ترويه ويأنس به ويها ، وقد يكون غير ذلك ، فلست أدري ما الذي أوحى إلى مارتا أن تستوقفني ذات يوم وقد مررت بحقلها على فرسي فطلبت إلي أن أترجل وأدخل مثواها لأشرب قدحاً من اللبن ؛ ثم راحت بعد ذلك تحدق في بعينيها الزرقاوين ، وقد لاح عليها أن لديها ما تريد أن تقوله وما لا تريد أو ما لا تقوى على أن تقوله ،

فلقد لاح عليها تردد بيّن ثم تنهدت وهى تقول :

— ربما بلغك عنى ما يلغط به القوم هنـا … إن ذلك كله هراء محض ، وقمين بك ألا تصدقيه . كلا … إنه لم يهجرنى وسيعود … أجل سيعود .

ثم نهضت متثاقلة كأنما تحس على كاهلها عبء سنيها وانحنت على صندوق مزركش وأخرجت منه ورقة مطوية . كانت تلك الورقة رسالة تحمل تاريخاً قديماً واسم مدينة (بروكلين) ثم قالت وهى ممسكة بها : لقد كتب إلىَّ هذه الرسالة . كتبها بلغة الحب الصادق . لقد أذاب قلبه فى رسالته هذه يناجينى فيها بأعذب الألفاظ . ثم عادت تحدق فىَّ كأنما استقر خاطرها على رأى فجأة وقالت : إننى أعرف بالطبع أنها رسالة غرام . ولطالما تمنيت أن أطلع على ما فيها فأعرف كل كلمة حبيبة كتبها إلىَّ .

وإنك لتعلمين أننى أمية لا أقرأ .

وليس فى القرية من أثق به فأطلب منه أن يقرأها لى؛ والنساء يحقدن علىَّ لأن زين الشباب أضحى أسير حبى ؛ والرجال يمقتوننى لأننى لم أرض بأحدهم زوجاً ؛ إذ كل ما يبغونه من زواجى لو تم ذلك لا يعدو الحقل . لذلك احتفظت برسالتى فلم يطلع عليها أحد . على أننى غالباً ما أخرجها من الصندوق ثم أعدو بالفكر فى مجالى الخيال أحاول أن أتصور ما يعبر عنه من العواطف ويزدان به من المعانى ، وإنه ليسعدنى أن تقرأيها أنتِ علىَّ إذا سمحت بذلك .

فأخذت الرسالة ، وقد كان واضحاً أن كاتبها ليس على شىء من العلم، ثم أخذت أقرأها لنفسى قبل أن أتلوها عليها .. ولقد جلست إلى جانبى ، كأنما تلوذ بى ممـا تحسه وتفيض به من تلك العاطفة الجموح . وكانت عيناها الظامئتان المترقبتان لا تتحولان عنى .

ولقد قرأت رسالتها مرة وثانية وثالثـة ، وقد أفزعنى أن أجدنى أرتعش ، وأخذنى دوار حاد ، إذ لا بد أن يكون الرجل ثملا حين أنشأ هذه الرسالة ؛ فلا يمكن لمخلوق بغير الخمر أن يثور فى نفسه كل هذا الحقد وكل هذه القسوة. مما لا يمكن تصوره فى حنايا إنسان . كان كل ما فى الرسالة سخرية من هذه البلهاء الدميمة التى صدقته فى تظاهره بالحب ، ولم تعجز منشئها دقة الوصف وسعة العلم بما يزرى بمارتا ويخزيها ، ولم يفته مظهر من دمامتها يتهكم به ويسخر منه . كان يسخر من أهداب عينيها كأنما هى شعرات خنزير ، ومن جسدها كأنما هو كتلة واحدة من العظم ، ومن فمها الواسع كأنه فم ضفدعة أو أوسع وأبشع . وحين ينتهى من وصفه اللاذع لمارتا وتهكمه بها يتحدث مزهواً عن فتاته الأميركية الحسناء التى تجلس إلى جانبه وهو يكتب رسالته . هـذه الفتاة التى يقول عنها إنها مشرقة كالزهر ، منيرة كالبدر ، تبتسم فتبدو كزهرة الربيع .

ثم يروى لمارتا أنه حدّث فتاته بحديثها ، حدثها عن امرأة بلهاء جُنَّت به ووهبته كل مالها لـكيما يبلغ هذا البلد السعيد الذى يعج بالنساء الفاتنات .

ولقد ألحت علىَّ مارتا بعـد ذلك ، تسألنى فى لهفة وتحرق ، ما ذا يقول ؟ لما ذا لا تقرئين ؟ ما ذا تنتظرين؟

لقد كذبت عليها ، وما ذا كان فى طوقى أن أفعل ؟ رحت أحدثها ويدى ترتجف وقلبى من الغيظ يتلوّى ،أن بوريس يذكرها أبداً ولا يملّ ذكراها ، وإنه ليذكر طول عمره ذلك الزمن الذى قضياه معاً . ثم رحت أسف لها شدة شوقه إليها وأنه سيعود ذات يوم حينما يفرغ صـبرها وتيأس من رحمة الله ، ليفوز بها ولن يتركها بعد ذلك العمر كله .

لقد كنت أجد الـكذب شاقاً على نفسى مجهداً لها ، فلقد أمضنى الرثاء الذى أحس به لهذه البلهـاء حقاً ، والاشمئزاز الذى أفيض به لذلك الذى عبث بهاوتنعم بمالها ثم راح يسىء إليها قدر ما أحسنت إليه . على أننى وجدتنى بعد بضع جمل أتقن الـكذب وأجيده . فرحت أجهد خيالى وأعنت ذاكرتى لتسعفنى بما تعى من شهيرات رسائل الحب التى قرأت .

ثم ألقيت بالرسالة بعد ذلك على المنضدة ، فأمسكت بها مارتا وهى على حال شديدة من الاضطراب . كانت كهيكل من الخشب بعثت فيه الحياة فجأة ، فلم يعد يبدو عليها ذلك العبوس ، وتلك البشاعة . كل ذلك انقلب الآن فى وجهها إلى عذوبة وإشراق وحياة .

ثم راحت تتحدث إلىّ بخفوت حتى لـكأنها تحدث نفسها.. كتب إلى كل ذلك ؟ كل ذلك ؟ كل هذه الألفاظ الحلوة العذبة !! كل هذا الحب … لى أنا ! ؟ ثم تنهدت وقالت : على أننى لسوء الحظ لا أستطيع أن أقرأ كل هذا بنفسى . لماذا لا أتعلم القراءة؟… أرينى بالله فى أى سطر منها يؤكد شـدة حبه إياى وشوقه إلىّ ، وأين

كتب يقول إنه سيعود حينما يعيينى الصبر .

ولقد أريتها بعض السطور فى أول الرسالة وأخرى فى آخرها..

فهزت مارتا رأسها وقالت : لو كان لى علم ذلك . حينما كربنى الهم وأمضنى اليأس وأضنانى الانفراد . لو أننى كنت أستطيع أن أقرأ على نفسى هذه الرسالة الحبيبة كل يوم ... ثم راحت تحدق فىّ كطفل يستجدى حلوىً وتقول : يا صديقتاه أخبرينى . هل يستطيع مَن فى سنى أن يتعلم القراءة ؟ ...

ولقد راعنى قولها هذا حقاً . على أننى قلت لها : إن هذا لغاية فى الصعوبة . ولكن ما الذى يدفعك إلى هذا وأنت تعلمين الآن ما كتب إليك ؟ فقالت : هذا صحيح . ومع ذلك فإننى أحس رغبة ملحة فى أن أقرأ الرسالة بنفسى لكى أتملى بكل حرف منها ... على أى حال لا بد أن أكلم معلم القرية فى ذلك .

ثم غلبها الصمت فراحت تحلم . وقد فاضت عيناها بالدمع غبطة. واستسلمت لأمانيها وأحلامها ، فلم تفطن إلىّ وأنا أنسل من جانبها فزعة كأنما ارتكبت إثما .

منذ ذلك اليوم حرصت على ألا أمر بحقل مارتا كلما امتطيت جوادى خيفة أن تبصر بى فتطلب إلى أن أقرأ الرسالة مرة أخرى فأتلوها على غير ما تلوتها أول مرة ، فيبعث هذا فى نفسها الشك .

على أننى عرفت مما تثرثر به عجائز القرية أن مارتا تقصد المدرسة مساء كل يوم فتمكث فيها ساعة أو تزيد، تتلقى على مدرسها دروساً فى القراءة . ولشد ما كان نساء القرية يضحكن وهن يلغطن بحديث مارتا ويقلن إنها تتعلم القراءة ... تتعلم القراءة فى سنها هذه ! ترى أكان هذا لأنها ستصبح عما قريب سيدة ؟ لقد ابتاعت كتابا للأطفال وإنها لتجلس على مقعد أمام بيتها كل يوم ممسكة به وهى تردد حروفا منه : ألف — باء — جيم — قاف — طاء — هاء — قطه ..

وإن الناس لا يقوون على كظم ضحكهم مما يرون ، ثم يسترسلن فى ضحكهن ساخرات . أما أنا فقد وجدت فى الأمر غير ما وجدنه . لقد كان فيه ما يبعث على البكاء رثاء لها وفزعا مما ينتظرها .

ولقد خرجت أتنزه ذات يوم فضللت سبيلى . ثم ألفيتنى بعد حين فى غاب خلف حقل مارتا . وكان الوقت خريفاً والهواء البارد يهب من البحر قارساً ، فلذت بالأشجار محتمية بها ، ثم رحت أزحف بين أفنانها ، فبلغ أذنى بغتة صوت أجش قوى النبرات يردد ألفاظاً بجد وقوة : بيت — حقل — كلب — بقرة .. وما شا كل هذه الكلمات البسيطة الرقيقة التى كانت برغم ذلك تمهد السبيل الذى سيقود مارتا ذات يوم من النعيم إلى الجحيم .

وكان الصوت لا يزال يردد ... حقل ... الله ...

الله ! أجل ... إنه هو وحده القادر على أن يبعث إلى مارتا بكسف من السماء يودى بها قبل أن تجد نفسها قادرة على أن تقرأ الرسالة ... الرسالة التى تفيض بالحقد والمقت والسخرية ... الرسالة القاتلة ... إنه القادر على أن يرحمها فيعمى عينيها الظامئتين المترقبتين قبل أن تستطيعا قراءة حرف .

وكانت ليلة ... أرخت فيها يد الخريف سدول الوحشة والكآبة على الكون ودوّت فيها العواصف القاصفة بالسهول ... وهدر البحر يتعالى مضطرباً صاخباً ، والأشجار العارية تمد أيديها كأنها تسأل النجدة أو تستغيث مما ترى وتسمع ... وأوراق الشجر تتناثر على الأرض فتلوح مما علاها كبساط مزركش زاه ... ثم أرسلت السماء بعد ذلك ثلجاً أبيض ناصعاً رقيقاً ، فكسا كل شىء رداء أبيض يشف عن طهر وروعة ، مبدلا بؤس الخريف وعبوسه دنيا بيضاء ... ناصعة البياض ، وكان هذا قبل عيد الميلاد بيومين ... حين تلجأ الساهرات إلى مثواهن يخشين الأشباح التى تطوف فى الكون كما كان هذا الحين ... وعلى حين فجأة تبدى الكون الأبيض فى وشاح قرمزى اللون يضطرب ويلتهب ، فلقد اندلعت نيران ، نيران هائلة ، أضاءت من تلظيها الغابة التى كانت تجاورها . ولقد أهرع رجال القرية وعمال المقاطعات الأخرى ليطفئوا النار ... ينير لهم السبل وهجها الأحمر . ولما بلغ القوم بيت مارتا ألفوا حقلها يشتعل ، والريح الشمالية تقذف بألسنة ناره إلى كل جهة . وكانت الأبقار تخور فزعاً فيملأ خوارها الأرجاء ؛ والخيول مسها خبل فأخذت تقمص حتى وجدت مخرجا فاندفعت منه إلى السهل الأبيض كأنها أشباح تطوف .

وأمام البيت الملتهب كانت تقف امرأة ... كان شعرها الأغبر الأشعث المنفوش يحيط بوجه كالح وعينين متحجرتين ... وكانت تقهقه ضاحكة ... فتعلو قهقهتها على خوار البقر وفرقعة الخشب المحترق ، ولقد لبثت حيناً بعد ذلك وهى تشهد كل ما حولها وتقهقه.

لقد قرأت مارتا الرسالة أخيراً ...

القدس **فيصل عبد الله المحامى**